سنريهم آياتنا

تأليف

الأستاذ عدنان السبيعي

قدّم له

المرحوم الأستاذ زهير الصابوني

الدكتور وهبة الزحيلي

إهداء باحلاق

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

سنريهم آياتنا

طبعة دار القلم الثانية

مزيدة ومنقحة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

سنريهم آياتنا في الآفاق
وفي أنفسهم حتى يتبين
لهم أنه الحق

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم المرحوم

الأستاذ القاضي زهير الصابوني

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

يحلو للإنسان أن يقف طويلاً منقّباً خاشعاً ومتأملاً في قدرة الله أمام هذه الآية الكريمة الواعدة، وما تثيره في مضمار العلم من حقائق تحرض الخيال وتنادي الإنسان كي يعمل فكره ويرنو ببصره وبصيرته وتأملاته في إطار الإيمان بالله. إن غاية هذا البحث جليلة ورفيعة وهي تستهدف تعزيز الإيمان بالله عز وجل وتوثيق وحدانيته. وقد سلك الباحث الصديق الأستاذ عدنان السبيعي، واضع البحث، إلى غايته البراهين القاطعة على أن الحياة ترتبط بوجود الخالق وتدور حول وجوده، فكما أن أي مصنوع لا بد له من صانع كذلك هذا الكون الذي نحن فيه لا بد له من صانع قادر هو مصدر هذا الوجود، وهو الحق الكبير الذي شغل الفكر الإنساني في البحث عنه منذ وجد الإنسان على ظهر هذا الكوكب ألا وهو الله.

وإذِ اتخذ بحاثتنا الأستاذ عدنان السبيعي عنواناً لبحثه الشيق الآية الكريمة:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

فقد أرشدنا مقدماً إلى الغاية من بحثه منذ بدايته وعرفنا سلفاً بما يتوخاه منه، ولكن ما يسبغ على البحث أهمية خاصة هو الوسيلة التي استخدمها والسبيل الذي سلكه من البداية المتمثلة في الآية الكريمة إلى الغاية الجليلة النبيلة المقصودة منها، وإنني أبيح لنفسي القول أن الأهمية المشار إليها تتجسد في النهج العلمي الرياضي الذي رسمه بحاثتنا في إظهار الرابطة المتينة القوية التي لا انفصال لها بين الأثر والمؤثر، ففي العلوم الرياضية وخاصة الهندسة منها تلعب عملية الافتراض

دوراً بارزاً في حل المسألة الرياضية المطروحة ومن ثم إثبات صحة النظرية التي تنطبق عليها وتؤيد صحة الحل، وفيما سلكه بحاثتنا في بحثه نجده يستعرض الأثر ويطرح التساؤل عن سبب وكيفية وجوده، ثم يتتبعه برقة ودقة الممحص الخبير ليصل إلى صانعه المؤثر، ويحمل القارىء معه عبر رحلة طويلة من الاتباع الفكري وسلسلة طويلة من التأملات الواعية والبراهين التي لا حصر لها على وجود المؤثر العظيم الكبير القادر بحيث يعزف هذا القارىء بملء القناعة واليقين عن الزعم القائل بأن خلق هذا الكون وإبداعه قائم على المصادفة، وهو في سبيل الوصول إلى هذه الغاية والقناعة لم يألُ جهداً في عقد المقارنات العلمية على الواقع العلمي والمادي واستخلص باستنتاج سائغ سليم صدق ما في صحة الآية الكريمة القائلة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

الذين يتفكرون في هذا الخلق العظيم ويقولون:

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾.

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾.

ونسأل نحن من هو هذا المنادي فيأتي جواب بحاثتنا واضحاً لا لبس فيه مؤيداً بكافة البراهين الواردة في الآيات القرآنية والتجارب العلمية والعملية، إن هذا المنادي هو هذا الكون بكافة ما فيه من كائنات الشمس والنجوم والسماء والبحار والأنهار والشجر والرياح والمطر... هذا الكون بكافة ما فيه من قوى وطاقات يقف الإنسان أمامها متأملاً مذهولاً.

إن هذا الكون بكل ما فيه يدعو كما يقول باحثنا الجليل إلى الإيمان بالذي صنعه، بالله القادر الخالق كل شيء حتى إذا وصلنا إلى هذه القناعة حُزنا القدرة على الاستمتاع بكل ما أوجده هذا الصانع العظيم من جماليات وقوى سخَّرها لخليفته الإنسان على هذه الأرض.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

وبتنا نملك النفس الآمنة المطمئنة القانعة الراضية بما أسبغه الله على عباده من خير عميم تأتي على رأسه هبة الحياة نفسها.

ولقد اقتضت الدلالة على عظمة الخالق وانفراده بالخلق والإبداع التحدث عن كل ما تحيط به حواسنا وعما لا تحيط به إلاَّ بالعمل والجهد الشاق وإعمال الفكر واستخدام العلم:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

ولم يكن بحاثتنا مقلاً في حديثه عن الكائنات المختلفة والقدرات الهائلة الكامنة فيها، فاستعرض منها ما شاء له أن يستعرض واستشهد بما فيها ما شاء له الاستشهاد، كل ذلك بعرض متسلسل بديع من الذرة إلى الشمس ومفاعلها النووي الكبير، وما يمكن أن يحصل لهذا الوجود إذا وقع أي خلل أو اضطراب مهما كان ضئيلاً في هذا النظام الكوني الذي تحرسه قدرة لا يحاط بها وعين ساهرة لا تنام:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾.

إنه نظام لا تفريط فيه ولا إفراط يقوم على حساب رياضي دقيق وكل شيء عنده بمقدار.

كما لم يغفل محدثنا عن التحدث عما هو أهم المخلوقات، عن هذا الإنسان، الذي قبل المخاطرة وحمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض، وإذا كان الله تعالى وصفه بأنه ظلوم جهول، إلاَّ أنه لم يخف عنه أنه أقرب مخلوقاته إلى محبته وإلى رحمته فخلقه في أحسن تقويم وغرس فيه بعضاً من صفاته التي منها الحكمة والرحمة والعدل. لذلك كان طبيعياً أن يوليه واضع البحث اهتمامه الأكبر، ما دام أنه اختصه الله بأكرم الصفات وجعله خليفته في الأرض وسخر له كافة الكائنات ومنحه كافة الوسائل والإمكانات مزوداً بما حباه الله من طاقات ومواهب

تجل عن الوصف وذلك لاستخدامها في الحكمة وبنور العقل وحسن التبصر:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

وعندما يحدثنا بحاثتنا الكبير عن أكرم المخلوقات فإنه يستغرق في الحديث عن هذا المخلوق الإنسان ويسهب في البحث في مكنونات نفسه منذ وجوده جنيناً حتى ولادته ونموه مستنيراً بآخر ما توصل إليه العلم النفسي مستشهداً بالأدلة القاطعة على أن الصحة النفسية تبدأ في مرحلة ما قبل الولادة بل في الأشهر الأولى من تكوُّن الجنين وفي ذلك ما فيه من توجيه حكيم إلى الأبوين بناة الأسرة الخلية الأولى في المجتمع والتي هي أساس قوامه، في صحتها صحته وفي انهيارها انهياره.

إن اعتبار الآية القرآنية الكريمة:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

موضوعاً للبحث هو اختيار للمركب الصعب لما في هذه الآية الكريمة من بعد واتِّساع يشمل الوجود بأسره، ولا يمكن أن يتصدى له إلاَّ من حباه الله بالموهبة الفذة والعلم الغزير والثقافة الواسعة المتعددة الوجوه ولقد كان بحاثتنا الكبير الأستاذ السبيعي ذلك الربان الماهر الذي لم يترك مزيداً لمستزيد فأحاط بالموضوع إحاطة السوار بالمعصم، بحيث أوصل المركب إلى بر الأمان ليزيد ببحثه هذا فضلاً على أفضاله السابقة ويغني المكتبة العربية مرة أخرى بغزير علمه وثاقب نظره وسعة تجربته، وفقه الله وأمده بالقوة والعافية وجزاه عن فضله خير الجزاء.

بقلم المرحوم الأستاذ القاضي زهير الصابوني
نائب رئيس محكمة النقض
الأمين العام السابق لوزارة العدل
في سورية سابقاً

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: الدكتور الأستاذ وهبة الزحيلي

إن من أصح السبل وأسلمها وأقربها منالاً لغرس بذرة الإيمان بالله عز وجل والإقرار بربوبيته وألوهيته رباً واحداً لا شريك له، مدبراً مشرّعاً، هو القناعة الذاتية الناشئة من التأملات الحسية المشاهدة حول الإنسان، وما يدركه فكره ويطمئن إليه عقله السليم من نتائج ملاحظاته حول سر الكون والحياة والإنسان.

ومجال هذا في ميدان العلوم القديمة والحديثة هو علم النفس والتربية والفلك والتشريح، وإذا كانت هذه العلوم تدرس اليوم في المدارس والجامعات بمنأى عن الجانب الإيماني الروحي، فإن صروح العلم تعد مقصرة في هذا المضمار، بل متخلفة.

ونحن المسلمين اليوم بأمس الحاجة إلى ما يسمى بأسلمة المعرفة، وتحويل الاكتشافات العلمية الحديثة إلى مصادر معرفة ومفاتيح تربية إيمانية تعزز الثقة بالدين، وتنمي غراس الإيمان وتصحح أصول العقيدة الحقة بالله عز وجل.

وأمامي هذا البحث الجاد الهادف المجدد لميادين علم النفس والتربية والفلك في آفاق الكون والنفس الإنسانية، فهو بالإضافة إلى تبسيطه وسائل المعرفة، وتقريب وجهات النظر، وإفساح المجال للتأملات التي تغرس الإيمان، وتوقد جذوته في كل إنسان، ينبِّه المتأمل إلى جانب آخر في الكون، وهو هذا التوازن الدقيق الشامل بين أجزائه ومشتملاته، وبخاصة ما يتعلق بالماء والهواء والتراب، وتركيبات الغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية، من أجل الوصول

لهدف أسمى هو خير الإنسان وضمان استمرار عيشه الهادىء والسعيد على سطح الأرض.

لقد أوضح أستاذنا البحاثة عدنان السبيعي ملامح الإيمان في رحاب اختصاصه بعلم النفس، وأعطى تصوراً رائعاً لبعض الكواكب وهي الشمس وما تمنحه للأرض والإنسان والحيوان والنبات من طاقة حرارية لا غنى عنها من أجل الحياة، وإن كانت هذه الطاقة الضخمة لم يستفد منها الإنسان على نحو أكمل شامل بعد.

ثم أوضح معالم القدرة الإلهية في تكوين نفسية الجنين وانعكاسات أوضاع أمه السارة والمؤلمة عليه، وما يحدثه الطفل بعد الولادة من إشاعة روح الفرح والسكينة والبشرى في أجواء الأسرة، ومدى تفاعل الطفل مع الحياة. كما حلل ظاهرة النوم عند الناس وما يتخلله من أحلام تعكس أحوال أصحابها الآمنين الوادعين في الحياة، والظالمين المضطربين فيها، وما تقذفه حياة الفريقين من رؤى مخيلتهم أثناء النوم. وأضاف لذلك تبيان حقائق التنويم المغناطيسي ومفاجآته العجيبة، وأنه يفتح باباً لمعرفة أوثق بآفاق الإنسان الخفية وطاقاته العجيبة غير المحدودة التي ينطوي عليها، ويمكن اكتشافها من خلال هذا النوم المصطنع بتأثير وبراعة شخصية المنوم.

إن المشاهدات الكونية التي ترتسم في مخيلة الطفل والجنين والنائم والمنوّم مغناطيسياً تعد مخزناً عجيباً لما يمر به هؤلاء من أحداث الحياة صغيرها وكبيرها، وكل ذلك دليل على عظمة خلق الإنسان:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وفي خاتمة البحث وصف دقيق لنتائجه الباهرة في تكوين أساس الإيمان بالله سبحانه، وتصحيح المعتقدات، كما تضمنت حملة عادلة على الحضارة المادية الحديثة التي أبعدت الإنسان عن الارتقاء بالمعاني الروحية التي تتعطش إليها جميع النفوس البشرية.

وفي الجملة: تعد هذه الدراسة التي نرجو المزيد منها من أستاذنا المحبوب لجميع طلابه نفحة من نفحات الإشراق القلبي بالإيمان بالله خالق الكون والإنسان، أوحت بها تأملاته في علم النفس، والتي حولته من مجرد علم كامد تُحشد فيه نظريات الفلاسفة، إلى علم حيٍ متحرك طافح بالإيمان، وطريق لأسلمة المعرفة من خلال آي القرآن الكريم.

الدكتور الأستاذ وهبة الزحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه
بجامعة دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الْبَاحِثْ

الحمد لله رب العالمين. وأفضل الصلاة وأكرم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغُر الميامين. وبعد فإنّ البحث في آيات الله تعالى هو بحث في دلائل قدرته وعظيم صنعه وقوامه التذكير بعلامات إنعامه وبشائر رحمته وسابغ فضله، وهو بحث جليل القدر ينير القلب ويبهج النفس ويوطد الصلات بين الخالق والمخلوق، كما يبعث على مزيد من الطمأنينة في إيمان المؤمنين ويعينهم على التمتع بإيمانهم وتقوية أسباب اليقين عندهم. وقد أُثِر عن نبينا محمد ﷺ حرصه البالغ على مواجهة المعرضين عن دعوته وجماعات الكفار، وسعيه الحثيث لتقديم الآيات والأدلة التي تؤكد صدق دعوته واستقامة رسالته، إلى أن نزل الوحي الأمين بقوله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1].

والحق أن التماس المؤمن آيات الله لا ينحصر بالمعرفة ليوثقها في ذهنه بل يتجاوز المعرفة ليكوّن مواجهةً شاملة عميقة تحتل آفاق حياته النفسية وتقتضي منه جهوداً فائقة ودمجاً لفعاليات نفسية جليلة ومتعددة، اقرأ إن شئت قوله تعالى:

[﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾.

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٥.

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾][1].

إننا ندرك من تلاوة هذا النص المبارك أن الأغراض من عرض آيات الله في آفاق الكون كثيرة هي هنا: (١) معرفة تلك الآيات بالفكر، (٢) وإدراكها بالعقل، (٣) وتحصيل الذكر والتذكر، (٤) واتخاذ مواقف التقدير وشكرالخالق على أنعامه، (٥) من أجل بلوغ الهداية والاستنارة في العلم والحياة.

وفي هذا النص الإلهي البليغ:

منهج كامل للحياة الراشدة وأسلوب علمي دقيق ينطلق من ملاحظة الماء سر الحياة ومبدئها وينتهي بالهداية هدف الحياة الإنسانية وغرضها الأسمى.

* * *

(١) سورة النحل: الآيات ١٠ ــ ١٥.

فلنذكر الآن قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

فنلتمس تحديداً لمعنى الآيات والآية. ونعدو بعد ذلك لنطلع في كتب التفسير على ما ورد من شرح وإيضاح لهذا التنزيل الحكيم.

حد الآية:

ـ الآية لغة هي العلامة والدليل والحجة وأصلها أَوَيَة بالتحريك[1] وجمع الآية آيٌ وآياء وآيات.

ـ وفي كتاب الله تعالى وردت الآيات بمعنى جماعة الحروف في كلمات، والكلمات في جُمل.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[2].

وقال:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[3].

فالآيات إذن هي الأدلة والعلامات من جهة. وهي كلمات الله في كتابه من جهة أخرى.

«إِنَّهَا كَلِمَاتُ ٱللَّهِ تَدُلُّ عَلَى ٱللَّهِ»

تفسير القول:

جاء في مختصر تفسير ابن كثير[4]:

---

(١) مختار الصحاح.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٢، سورة آل عمران: الآية ١٠٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٨.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثالث، ص ٢٦٨، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

أي سنُظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ **بدلائل خارجية** (في الآفاق) من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان قال مجاهد والحسن والسدي (وفي أنفسهم)، قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك، من الوقائع التي نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد **ما الإنسان مركب منه**، من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة. كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع...

ويتابع فيقول: «إن الله على كل شيء قدير»، «ألا إنه بكل شيء محيط»، أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وهو المتصرف فيها كلها بحكمته.

* * *

وهكذا نرى أن تعبير الآفاق قد فُسر بمعنى الدلالات الخارجية وهو تفسير مقبول نظراً للمعنى الذي تنطوي عليه الآفاق وتقابلها الدلالات الداخلية في الأنفُس. لكن حصر الآفاق بالفتوحات التاريخية (التي جرت في الزمان)، هذا الحصر ليس إلا اجتهاداً ذهب إليه المفسّر، وهو اجتهاد يقبل النقاش. والرأي أن الآفاق يمكن أن تكون زمانية كما يمكن أن تكون مكانية. وبالعودة إلى لغة العرب نجد أن: «الآفاق هي النواحي، وأحدها أفْق وأفُق»[1].

وإننا نرى أن كل الآفاق الزمانية والمكانية، وما تمت رؤيته وما لم تتم وما جرى وما سيجري علمُهُ يصلح أن يُتخذ دلالة واضحة على توحيد الله وصدق دين الإسلام وذلك للاعتبارات الآتية:

١ ــ إن دين الإسلام (أو دين التوحيد) دينٌ خالد باق وسيبقى وتبقى آيات صِدْقِهِ ما بقيت الأرض وبقي الناس على ظهرها يبحثون ويتعلمون ويعلمون.

---

(١) مختار الصحاح.

٢ ــ وما أورده المفسرون من تفسيرات يوضحون بها معنى العبارة (سنريهم آياتنا) يمكن الأخذ بها، ولكن لا شيء يمنع ظهور آيات أخرى مستجدة، وسيظل فعل (سنريهم) يحمل معنى الرؤية القادمة أو المستقبلية، ولا شيء يجعل هذا الفعل يقف عند حد معين أو واقعة محددة.

٣ ــ وإذا عُدنا إلى الآيات التي استشهدنا بها آنفاً[١] والتي تتناول موضوعاتها: (الماء والزرع والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وما ذرأه الله في الأرض، والبحر والجبال الراسيات والأنهار والسبل)، فإن كل ما يكشفه البحث والتنقيب في هذه الموضوعات وأمثالها يؤخذ به شرط أن يكون موثوقاً وصحيحاً وبعيداً عن الهوى وضلال الرؤية، إن الإسلام لا يخشى الحقيقة بل يعززها ويعتز بها.

٤ ــ هذا وعلينا أن نتوثق من جديد أن الإسلام ليس فكراً مغلقاً على نفسه كما أنه ليس فكراً إقليمياً محدوداً بزمان أو مكان، ولا هو فكر خرافي يمجد الأساطير أو تُرهبه المعقولية وإنما هو فكر مطلق ويرتبط أو يتعلق ضرورة وبشكل حتمي بخالق واحد مطلق.

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[٢].

ولنذكر مجدداً أن الوظائف النفسية التي أوردتها الآيات السالفة من (تفكير وعقل وتذكر وشكر لله واهتداء)، هذه الوظائف لا تُقيَّد إلا بسلامة عملياتها، وهي تبدأ بالتفكير (أو البحث الفكري)، وتنتهي بالهداية (وهي الاتجاه إلى الله) الحق.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٣].

والمرء الذي يتعمق ويتابع الأبحاث العلمية وسيرها التجريبي يتأكد أن مسار العلم يتوجه (بفضل مزيد من الدقة في أدوات البحث والكشف والرؤية) نحو مزيد

---

(١) في سورة النحَل: الآيات ١١ ــ ١٥.

(٢) سورة طه: الآية ٥٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

من التماسك والوحدة فعلم الفيزياء اليوم يؤكد تناغم قوانين الوجود الأصغر في الذرة (ميكروكوزموس) مع قوانين الوجود الأكبر في الفضاء (ماكروكوزموس) وتوافق القوانين كلها مع المعقولية الكلية:

﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[1].

٥ ــ أما الوعد الإلهي العظيم بأن يرينا آياته (في الأنفس) فلا يقف عند حدود التشريح الجسدي. وصحيح أن دلالات التشريح عظيمة وفائقة الأهمية، لكن يبدو أن عبارة الأنفس يمكن أن تتجاوز تشريح الجسم الإنساني وتسلك طريقها صوب معارف لا مادية لا تَقِلُّ كشوفها ودقة نتائجها عن كشوف التشريح إن لم ترجحها وتَعْلُها.

* * *

وإنفاذاً لهذا كله فقد استلهمنا المولى تعالى العون وسألناه التوفيق في إظهار آيات الله في الأرض التي نعيش عليها ويعيش البشر:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾.

وفي الشمس التي نستنير بها ونستدفىء ونتابع حياتنا وفعاليتنا:

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾.

وفي الغلاف الجوي الذي تكشف الأبحاث عن دلالته الفائقة في حماية الأرض والحياة على سطحها.

وفي تلوث الغلاف الجوي الذي أخذ أخيراً يقلق سكان الأرض وعلماءَها بوجه خاص.

ثم عمدنا إلى إظهار آيات الله تعالى في موضوعات نفسية مستجدة:

---

(١) سورة الملك: الآيتان ٣ ــ ٤.

* **في نفسية الجنين**: التي اطلع عليها العلماء بفضل التنظير. وتُعد توجهاً جديداً في مضمار فهم الإنسان السوي والمنحرف والمجرم.

* **في النوم**: الذي يستهلك ما لا يقل عن ثلث أوقات حياتنا[1] ويحسن بل يجب أن نفيد منه.

* **في الأحلام**: التي فسرت في الماضي وما تزال تفسر من جديد. وكانت شكلاً من أشكال الوحي ذات يوم.

* **وفي التنويم المغناطيسي**: الذي تظهر أبحاثه وتجاربه العلمية الموثوقة عَدَمَ محدودية الإنسان وامتداد آفاقه:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وختمنا أبحاثنا ومحاولاتنا التجديدية ببحث ابتغينا فيه الاهتمام بـ: «تنمية الطاقات الروحية للإنسان».

في عصر يتثبت فيه العلماء الصادقون من الإيمان بالله وتتعاظم فيه غوغائية الضلال وتشتت الإنسان في الوقت نفسه.

* * *

أخي أيها القارىء الصديق:

ها أنت ترى أن هذا جهد المُقِل وهو جهد متواضع أثبت فيه ما انتهى إليه اجتهادي (في احتمالات صوابه أو خطئه)، ورجائي منك أن تشعر باحترامي الأكيد إذا أنت نبهتني إلى مواطن الخطأ والانحراف حيثما رأيت الخطأ أو الانحراف، ورحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي، فدلني عليها.

ـ هذا وأقدِّم وافر الشكر مع التقدير لكل من تفضل بالعون في إنجاز هذا العمل وإظهاره بالشكل الذي يبدو عليه وهم كثيرون أخص بالذكر منهم:

ـ المرحوم الأستاذ زهير الصابوني الأمين العام السابق لوزارة العدل السورية،

---

(١) ويستهلك ما يزيد عن ٩٠٪ من أوقات الشعوب النائمة.

والقاضي والعالم بالقانون والفقه الإسلامي الذي زودني بالكثير من خبراته الرفيعة وعلمه وفضله وأكرمني بالمقدمة التي تفضل بها فأضفت على بحثي الأهمية والقيمة، أكرمه الله وأثابه ونفع به.

ـ الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق الذي قرأ هذا البحث وهو ما يزال مخطوطاً وأبدى ملاحظات قيمة أثْرت الأبحاث فيه، ثم تفضل بتقديم مقدمة صاغتها أصالتُه وخطّها بيمينه حفظه الله ورعاه وأجزل له الثواب وزاده علماً وفضلاً.

ـ الأخ المهندس خليل دكاك الذي قدم جهوده في كتابة وإعداد المخطوط قبل طباعته.

ـ الأستاذ الفاضل محمد علي دولة صاحب دار البشير ودار القلم في سورية جزاه الله كل خير وبارك في جهوده العاملة على إغناء المكتبة الإسلامية والعربية بأفضل المراجع والكتب والمجلدات.

جزى الله تعالى الجميع وأثابهم بما هم أهل وزاد في إكرامهم.

الشام ١ ذي القعدة ١٤١١هـ
الموافق ١٤ مارس ١٩٩١م

عدنان السباعي

البَابُ الأوَّل

من

آيَاتِ اللهِ فِي الآفَاقِ

* العلم الحديث يكشف آياتٍ لله على الأرض.
* المشاهدات والدّراسات تتناول آياتٍ لله في الغلاف الجوي.
* العلم الحديث يكشف آياتٍ لله على الشمس.
* ظهور التلوّث وتفاقمه.

من
آيات الله في الآفاق

كم هو جميل أن تكون حياً، أن تشعر أنك تنجز شيئاً تحققه في حياتك، أن يكون لوجودك هدف حقيقي واضح.

إن الملايين من الناس يعملون في شتى أنحاء الأرض بجد بالغ، ويحاولون ويسعون كي يحققوا لأنفسهم السعادة في الحياة، وبالرغم من هذا السعي الحثيث، ومن المحاولات المتنوعة يأتي على الإنسان حين من الدهر يسأل نفسه قائلاً: هل للحياة من معنى؟... وإلى أين تتجه حياتي؟؟

أما **حياة معظم الناس** فيبدو أنها بكل أسف، عبارة عن سنوات معدودة يحياها كل واحد على وجه البسيطة، ينجب من خلالها الأولاد، فيحملون اسم أبيهم وأسرته، وبعدها يؤدي هؤلاء الأولاد الأدوار ذاتها التي أدَّاها آباؤهم من قبل، ويكبر الأولاد لينجبوا أولاداً من جديد... وهكذا دواليك يأكل فيها كل جيل ويشرب، يلهو وينمو ثم ينجب ثم ينسحب.. ويستسلم للموت.

طعام وشراب وألعاب

ترى أليس هناك من هدف حقيقي أعظم وأكبر من الأكل والشرب واللهو والتمتع وقتل الوقت؟ الناس جميعاً يدركون من خلال حياتهم أنه قد تنهض في وجوههم أمور كالتقلبات الاقتصادية والحروب وغيرها من النكبات والكوارث التي يمكن أن تقضي على جهود عمر كامل.

وفي الحياة أحزان وآلام ناتجة عن فقد الأحبة، وعن الأمراض، أو حوادث الأيام أو الحروب أو جرائم المجتمع، وهي على العموم أحْزان تجعل الحياة وكأنها باهتة وخالية من المعنى.

الحيـاة قصيـرة

وفي أفضـل الأحوال وحتى لـو نجا بعض النـاس هم وأحبـاؤهم من الأحـزان التي ذكرنا، فإن حياة الإنسان على الأرض قصيرة جداً بالنسبة إلى الوجود اللانهائي الذي يحيط بالبشـر. إن عمر كـل إنسان قصيـر ولا يذكـر إذا قيس إلى عمر الجبـال والتربة والأنهار والبحار.

إن عمر الإنسان أشبه بهزة من هزات (بندول) الساعة لا أكثر.

إن هذا كله يدعـونا إلى أن نتسـاءل عما إذا كـان **هنالـك شيء مدخَّـر ومخبَّأ لـلإنسان**، شيء أفضـل من كـل مـا أشـرنـا إليـه، شيء يستـطيـع أن يسبـغ المعنى الحقيقي لحياتنا.

وإذا كان ذلك كذلك، فما هو هذا الشيء؟

لكي نجيب عن هـذا السؤال ينبغي علينـا أن نحصـل على جـواب سؤال أهم وأكبر، ألا وهو: هل هذا الوجود، **وهـل الحياة كلهـا** القائمـة على هذا الـوجود من **صنع إلّه** خالق ندعوه الله؟ إن وجهة النظر عن أصل الأشياء ومصدرها ذات تأثير كبير للغاية وهي تؤثر في أسلوب أو طريقة رؤيتنا للحياة، وتؤثر بـالتالي في مـوقفنا الـذي نتخذه تجاه ما يحيط بنا، وبالقياس إلى ما يدركه ويراه كثير من الناس.

فإذا كنا غير متأكدين من وجود الخالق فإنه يتعين على كل واحـد من البشر أن يصنع حياته وفق ما يراه ويعتبره مثالياً ونموذجياً. فهذا يعني عدم وجـود معيار واحـد لما هو خطأ وما هو صواب يصلح لجميـع الناس، ويعني أيضـاً عدم وجـود إحساس حقيقي لتلاؤمنا مع الناس الآخرين وتفاهمنا معهم، وفي هذه الحـال لا يصعب علينا أن نـرى عدد المشكـلات التي يمكنها أن تـأتي على سعـادتهم وتقضي على حسن انسجامهم.

والآن ــ مـا هو السبب الـذي يدفعنـا **كي نعتقد بـوجـود خـالق مـدبـر أو إلّـهٍ للكون؟؟**...

بعض الناس يظنون ــ نتيجة شعورهم بالـظلم أو توهمهم المعـاناة القـاسية ــ

أنه لا وجود للخالق. ولكنهم يغفلون عن حقيقة جوهرية وهي أن كثيراً من الأشياء لا يمكن تفسيرها إلاَّ عن طريق الخلق والخالق، فمثلاً لنفرض أن إنساناً رأى ساعة يد من نوع جديد، وأنه قيل له: إن هذه الساعة قد صُنعت من دون أن يكون لها أي صانع!

ترى من الذي يستطيع أن يصدق هذا الكلام، كلنا قد رأى أنواعاً من الساعات وعرف أن الآلة المسماة بالساعة والتي تقيس الوقت وتبيِّنه للناس، تخدم هدفاً معيناً، وأن أحداً من الناس لا يشك في أن صانعها حين صنعها كان له **هدف واضح من صنعها، فهي لا تُصنع كيفما اتفق، ولا تُصنع لتحقق أي هدف**، كما أن من الجنون تصورها وقد صنعت نفسها **وأنها بعدما صنعت نفسها راحت تحقق أهدافها** وتقوم بوظائفها. . . !!!

وإذا انتقلنا من الساعة إلى الكون (من الآلة البسيطة الصغيرة إلى الكون الكبير)، إلى ملايين الأجرام السماوية (كواكب ونجوم وشموس ومجرات)، تلك الأجرام غير المحدودة التي تؤلف كياناً موحداً هو أشبه بالآلة الرهيبة الهائلة. فكيف نتصور أن هذه الآلة الرهيبة الهائلة قد صنعت نفسها، ثم راحت تحقق بانتظام أهدافها وتؤدي وظائفها! . .

إن الأجرام السماوية تدور في مداراتها بسرعة رهيبة وبدقة مذهلة، إنها تدور خلال ملايين وملايين السنين، الكواكب منها تدور حول الشمس بنظام محدد، وأما النجوم اللامتناهية وغيرها من الأجرام السماوية فتنضم كلها إلى بعضها وتتسق في المجرات بل في مجموعات من المجرات، إن هذا الحجم الهائل لتلك الكواكب والنجوم، وإن تلك الدقة العجيبة المذهلة في حركاتها تجعل أعظم ساعة تبدو حقيرة جداً وتافهة عند المقارنة.

خالق مدبر عظيم

ألسنا ملزمين الآن أن نسأل أنفسنا السؤال الآتي:

إذا كانت الساعة تتطلب وجود صانع لها، أفلا يتطلب الكون الكبير (الذي

يتجاوز الساعة بملايين وبلايين المرات من حيث الحجم والدقة) ألا يتطلب هذا الكون وجود خالق مدبر؟

ـ وأكثر من هذا هل يمكن أن يوجد شيء بمثل تلك الدقة والتعقيد دون أن يكون له هدف؟

ـ قد يقول قائل إن كل هذا النظام والدقة قد وجدا بالمصادفة أو أن قوىً عمياء سيطرت بالمصادفة على الوجود، وجوابنا: «**هل سمعنا أو نسمع بوجود شيء يتمتع بالدقة والإتقان قد وجد بطريق المصادفة؟؟**

الحق أنه لا شيء مما يقع في إدراكنا (مثل الآلة والإنتاج الصناعي والمنزل أو حتى المكنسة الصغيرة) إلاَّ وله مصمم صممه، وموجد أوجده.

إن المصادفة العمياء لا تستطيع أن تصنع آلة بسيطة، وهي من باب أولى لا تستطيع أن تصنع الكون الكبير وتنسق أجزاءه ووظائفه.

ـ أما القول القائل: إنه لا وجود للإلٰه الخالق، هذا القول يقتضي بالضرورة قولاً آخر إن العالم أزلي وإن المادة فيه موجودة منذ الأزل.

ولكن الإثباتات اليقينية تؤكد خطأ هذا القول الأخير.

العالم مخلوق

وإليكم هذه الإثباتات:

ـ نحن نعلم أن بين العناصر الطبيعية للأرض عناصر غير ثابتة، إنها العناصر المشعة. إن اليورانيوم مثلاً يظل يرسل دقائق مشعة حتى يتحول في نهاية الأمر إلى رصاص.

فلو كانت المادة في الكون أزلية، فإنه لا يمكن عندها أن يبقى للعناصر المشعة وجود حتى اليوم، لا بد عندها أن يكون النشاط المشع قد نفد وانتهى من زمن بعيد كل البعد، وقد نفد منذ الأزل كما ينفد الماء من برميل متشقق أو متصدع.

ـ ودليل آخر: يتمثل الدليل الآخر في الحرارة التي تتفاوت في أجزاء الكون.

نحن نعلم أن الحرارة تنبع عن الشمس الملتهبة، وتتحول سائرة نحو البرودة والصقيع بانتشارها عبر الفضاء. وتنص قوانين الترموديناميك (التي تتعلق بانتشار الحرارة) تنص على أن الحرارة تنتقل باستمرار من الجسم الحار إلى الجسم البارد حتى تصل حرارة الجسمين إلى الاستواء. لو كان الكون (والمادة فيه) أزلي الوجود، فإنه من الواجب أن تسود درجة واحدة من الحرارة في جميع أجزائه، وستكون هذه الدرجة في غاية البرودة.

ولحسن الحظ فإن هذا يخالف ما نراه ونشهده في الواقع.

ـ إن شمسنا تستمر في إصدار الحرارة والطاقة كما تفعل ذلك عشرات الألوف من الشموس الأخرى، وهذا يثبت بالدليل القاطع أن الكون (بما فيه من المادة) له بداية، والبداية تحتم وجود الخالق الذي بدأها وبرأها.

وحين درس العلماء المادة واكتشفوا الذرة، تبين لهم أن المادة مركبة من الطاقة الكامنة (وهي تتوافر بكميات هائلة)، وقد ظن العلماء أول الأمر أن الذرة أبسط شكل من أشكال المادة وأنها وحدة البناء التي لا تتجزأ للمادة.

وبعد أن تقدمت الدراسات الذرية تبينوا أن الذرة معقدة جداً إلى حد أنهم عاجزون عن سبر جميع أغوارها، وبتعبير أصح فإن مصدر هذه الطاقة الهائلة التي تتشكل منها الذرة في كل المواد والتي تتيح للكون أن يظل في حركة مستمرة، وإن هذه الطاقة ترجع حتماً إلى «ذات لها قدرة أوسع بكثير من تصورات الإنسان».

أجل، وإن هذه الحقائق هي أدلَّة واقعية ومفيدة، وهي تفيدنا أن الكون قد خُلق وتكوَّن بالتأكيد في زمن سحيق من أزمنة الماضي البعيد.

* * *

الفصل الأول

الأرض

الأرض

ـ أما الكوكب الذي يعيش البشر على سطحه والذي يسمى بالأرض، فماذا يقال عنه؟ . . . ما الدليل على وجود التصميم الذكي الذي هيأ الأرض لتلائم ظهور الحياة واستمرارها؟؟

ـ لقد صنع الإنسان مصانع للطاقة الذرية (مفاعلات نووية حرارية) مردودها من الطاقة أكبر من أي وسيلة معروفة. وعلى العلماء أن يظلوا حذرين باستمرار خوفاً من انفجار مدمر، ورغم كل الحذر، فقد حدثت بعض الحوادث المؤسفة (مثل الذي حدث في تشيرنوبل).

وأياً كان الأمر فإن أعظم المفاعلات الذرية التي صنعها البشر تعدُّ ضعيفة جداً وليست لها أية أهمية بالمقارنة مع الشمس.

ولو أتيح للمفاعلات الانفجارية الجبارة الكامنة في الشمس أن تفلت من عقالها، وتنفجر دفعة واحدة، فإن الأرض ستحترق وتبلى في أقل من لحظة صغيرة واحدة.

وبالرغم من ذلك فالشمس ما زالت منذ ملايين السنين تصدر الحرارة والضوء بانتظام ثابت دون أي تغيير ملحوظ.

ـ ولقد تبين للعلماء أن تحوُّل جزء واحد في المائة من كتلة الشمس إلى طاقة، ستصدر ما يعادل طاقة الإشعاع الشمسي الحالية لمدة مليون سنة متواصلة.

وحين نعرف هذا فهل نجرؤ على القول أن المفاعلات التي صنعها الإنسان تحتاج إلى ذكاء وتصميم بالغين دقيقين، في حين أن مفاعل الشمس يظل موجوداً

بطريق المصادفة ويتابع وجوده العظيم كذلك بالمصادفة؟؟ . . . وبغير مصمم صممها؟؟

أم ترانا نعزو الفضل إلى رب قدير أتقن كل شيء خلقه وخلق كل شيء بقدر معلوم فأتاح للشمس أن تنقل بسلام كمية مناسبة من الطاقة الحرارية تدفعها عبر حوالي ٩٣ مليون ميل في الفضاء (ما يعادل ١٥٠ مليون كيلومتر) كي تصل إلى أرضنا بالقدر الملائم والكافي لبقاء الحياة من دون أن تدمِّرها.

* * *

وعلينا الآن أن نتقصىٰ العوامل التي تجعل الأرض قادرة على استخدام طاقات الشمس بشكل يضمن بقاء الحياة واستمرارها فنقول:

١ ــ لو كانت الشمس أكثر قرباً من الأرض ولو لمسافة بسيطة فستصبح الأرض حارة جداً ومُحْرِقة بحيث يستحيل وجود الحياة وبقاؤها عليها، ولو كانت الشمس أبعد عن الأرض عن بعدها الحالي، فستصبح أرضنا باردة جداً ويكتنفها الصقيع الذي يمنع الحياة أن تنمو وتستمر على سطحها.

٢ ــ وإذا تقصينا سرعة دوران الأرض حول نفسها وتأملنا تعاقب فترات الليل والنهار على سطحها فسنرى أن سرعة الأرض في هذا الدوران مقدَّرة بالقدر الملائم تماماً لنمو النبات.

٣ ــ أما النباتات فإنها ــ بفضل استخدام الطاقة الشمسية ــ تحول الماء وثاني أوكسيد الكربون (CO_2) إلى سكريات مختلفة. وإن هذا العمل الذي يسمى بالتركيب الضوئي هو في الواقع، الأمر الحيوي الذي يسمح بتأمين الغذاء للحيوانات وبني البشر.

قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾[1].

---

(١) سورة الأعلى: الآية ٤ ــ ٥.

٤ ــ كلنا نعلم أن ميل محور الأرض عن الوضع الشاقولي يعادل (٢٣,٥°) ويؤدي هذا الميل الثابت إلى تشكل الفصول الأربعة (ربيع ــ صيف... إلخ) ويحدد الزمن (الذي تستغرقه الأرض في رحلتها حول الشمس)، الطول النظامي لهذه الفصول وهو طول منظم ودقيق كل الدقة.

٥ ــ وفي الوقت الذي تتغير فيه أطوال الأيام بتغير الفصول، فإن اختلاف الحياة النباتية يهيِّىء بالرغم من كل شيء، الطاقة اللازمة والملائمة لنمو النباتات بشكل ممتاز.

إن أي تغير في الظروف التي ذكرناها، إذا تمَّ بشكل ملحوظ فإنه سيؤدي بالضرورة إلى دمار الحياة على الأرض بالرغم من أن هذه الظروف تعد هي الأساس في نشوء الحياة.

الغلاف الجوي

ومن ناحية أخرىٰ فإن الطاقة الشمسية سوف تغدو لا عديمة الفائدة فقط بل ستغدو ضارة ومميتة فيما لو انعدم **الغلاف الجوي** الذي يحيط بكرتنا الأرضية، أي أن هذا الغلاف يحمي الأرض من الإشعاعات القاتلة الموجودة في ضوء الشمس.

٧ ــ ومن جهة أخرى نجد أن الغلاف الجوي حول الأرض تساعده إشعاعات الشمس على أن يصدر طبقة من الأوزون (المشتق من الأوكسجين)، وعمل هذه الطبقة يقوم على (امتصاص الإشعاعات القاتلة الصادرة عن الشمس) وتنظيم وصولها إلى الأرض.

٨ ــ ويرىٰ العلماء أن تركيب الغلاف الجوي الأرضي هو في حد ذاته مهم جداً لاستمرار الحياة وبقائها، ونحن البشر لا نستطيع أن نحيا بغير الأوكسجين، وعندما نحرم منه خلال مدات قصيرة فإن الجملة العصبية عندنا سرعان ما تتأثر كلياً وتكون عندها الوفاة.

أوليس شيئاً رائعاً أن الأوكسجين يوجد بكميات كبيرة في الغلاف الجوي ولكن هذه الكميات متوازنة توازناً دقيقاً بحيث لا تزيد في مجموعها ولا تنقص.

٩ ــ إذا ذكرنا أن الأوكسجين هو الغاز الذي يساعد على الاشتعال أو الاحتراق، فإن وجود الكميات الكبيرة من الأوكسجين، يمكن أن يشكل خطراً دائماً على الحياة فتظل الكائنات الحيَّة مهددة بالاحتراق التام، ولكن ذلك لا يحدث ولا يكون.. فلماذا؟ ... الجواب:

(أ) إن الأوكسجين في الغلاف الجوي يتضاءل تأثيره في الاحتراق بتأثير وجود غاز النيتروجين أو (الأوزون) وهو غاز ضعيف القدرة على الاشتعال.

(ب) وأكثر من هذا فإن الغلاف الجوي حول الأرض مصنوع بدقة، مُحتوٍ مواد أساسية للحياة وبالنسب الملائمة، مثل ثاني أوكسيد الكربون، وبخار الماء.

(ج) أما بالنسبة إلى الشمس فإن **الغلاف الجوي الشمسي** مؤلف بشكل رئيسي من غاز الهيدروجين، وغاز الهيدروجين ضروري وملائم لكيان الشمس، لكن الهيدروجين ضئيل الفعالية في تركيب الغلاف حول الأرض، (وذلك لسبب خواصه الانفجارية) ولو لم يكن هذا الهيدروجين محدود الفعالية، لكان جديراً بأن يشكل خطراً داهماً رهيباً يهدد الحياة على الأرض باستمرار.

مسائل وأسئلة

ــ وما لم يكن ثمة إلهٌ قادر خلق الكون فسوّاه تسوية دقيقة بتقدير بالغ، فإننا نتساءل: **لماذا وكيف تم ذلك التوازن الدقيق بين الغلاف الجوي حول الأرض والغلاف الجوي حول الشمس، لماذا وكيف تمَّ للأرض أن تكون مستعدة كي تستقبل وتحتضن ظهور الحياة عليها، لماذا وكيف تهيأ للشمس أن تكون العامل المغذي والمقوي لهذه الحياة دون أن تحرقها أو تأتي عليها؟**...

* * *

آية الماء

لندع الآن الغلاف الجوي حول الأرض ولنواجه (**الماء**)، إن الماء كما هو معروف يعد بشكله السائل أساس الحياة الطبيعية بل سر الحياة على الأرض.

والأرض تنفرد (بين سائر الكواكب المعروفة) بتوافر الماء فيها، والماء يملأ ثلاثة أرباع سطح الأرض وكميات الماء الهائلة التي تغمر المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات، هي العامل الأساسي الذي تنتظم به دورة الأمطار العاملة على نمو النبات.

أما **المحيطات فليست مجرد مستودعات هائلة من المياه**، بل إن وجودها يساعد على إقامة التوازن بين المناخات الحرارية على سطح اليابسة، وبغير هذه المحيطات فإن توازن (الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون) سوف ينعدم ويزول.

ـ ولنذكر ثانية أن الأوكسجين هو الشرط الجوهري اللازم للحياة الحيوانية، كما نذكر أيضاً أن ثاني أوكسيد الكربون هو الشرط الجوهري اللازم للحياة النباتية.

ـ أما المحيطات فإنها تمتص ثم تطلق ملايين الأطنان من ثاني أوكسيد الكربون، فتظل كمياته متوازنة على الأرض في سائر الأوقات.

إن الماء هو السائل الخارق الوحيد بين بقية السوائل، إنه يتمتع بأعظم قدرة مذيبة بين جميع السوائل، ولهذا السبب يستطيع أن يختزن في داخله المركبات الكيماوية **الضرورية** للحياة، وهو الذي يحمل المواد الغذائية ويقدمها لجذور النباتات.

ومن جهة أخرى، فإن الماء المكون الأساسي للدم، والماء يحمل الغذاء ويقدمه عطية لخلايا الجسم الحي، جسم الإنسان وجسم الحيوان. وتتألف أجسام البشر في تكوينها من (٧٠٪) ماء، ومن الملاحظ أن الماء يظل في حالة السيولة ضمن مجال رحب واسع من مجالات درجات الحرارة. ولو أن الماء كان يتبخر بسرعة أكبر (من سرعته الحالية) فإن المطر لن يكون ولن يظل قادراً على أن يتسرب إلى داخل التربة، وبالتالي لن تتحلل العناصر الغذائية في التراب ولن تكون الهدية العظيمة لحياة النبات. وفي مثل هذا الظرف من التبخر السريع ستفقد النباتات رطوبتها بسرعة وستتحول مساحات كبيرة من الأراضي إلى صحارٍ قاحلة.

أما درجة غليان الماء فإنها لو كانت أخفض مما هي عليه، فسينشأ خطر

جديد يداهمنا، وهو أن الدم الذي فينا سوف يغلي في أجسامنا حينما نتعرض للحرارة الشمسية المحرقة.

ولو كان الماء يتجمد بسرعة أكبر لأصبحت الأمطار عديمة القيمة واندثر النبات.

ـ ونضيف إلى ما سبق ملاحظة فيزيائية وهي أن الماء حين يتجمد ويصبح جليداً يتمدد قليلاً، وإن هذا التمدد يساعد الجليد على أن يظل طافياً على سطح البحار والمحيطات فلا يغوص إلى أعماقها. لولا هذه الظاهرة لكان تجمدٌ واحد يتم ذات يوم كفيلاً بأن يجمد المحيطات من الأعماق (فيتعطل دور المحيطات الذي شرحنا بعض جوانبه ويتلاشى أثر الماء).

ـ وشيء آخر يجدر ذكره هنا وهو أن خاصية تمدد الماء حول درجة التجمد تؤثر تأثيراً كبيراً في تشكل التربة، لأن الماء الذي يدخل الفراغات والشقوق بين الصخور ثم يتمدد في لحظة التجمد يحطم الصخور ويحولها إلى حجارة مفتتة وحصى صغيرة تساعد على تشكل التربة.

والسؤال الهام هنا: «**كيف اتفق أن اجتمعت في الماء كل هذه المزايا** وتكونت فيه كل هذه الخصائص، ونجمت عنه كل هذه الوظائف الهامة، كيف اجتمعت في الماء دون بقية السوائل الأخرى مثل هذه الخصائص، في الوقت الذي يؤلف فيه الماء متسعاً كبيراً يشغله على ظهر البسيطة؟ أيمكن أن تجتمع كل هذه الخصائص نتيجة المصادفة؟ بالتأكيد لم يكن ليتم كل ذلك إلاَّ بإرادة علوية سامية وخلاقة تُعنى فعلاً بحياة المخلوقات على الأرض، وتهيِّىء لها برحمتها ولطفها ما يضمن لها البقاء.

ـ وحين يلقي المرء نظرة ثاقبة على الكون المحسوس حوله يستطيع حتماً أن **يدرك وجود خالق جبارٍ مدبر رحيم**. وعلى الرغم من أن هذا الخالق الرحيم لا يُرى بعين الإنسان لكن صفاته المغيَّبة عن حواسنا يمكن أن تدرَك عن طريق مشاهدة الدقة البالغة والعظمة اللامتناهية الظاهرتين في أرجاء الكون. فقد يلح بعض البسطاء على أنه يحب أن يرى الله من أجل أن يؤمن به وفي مواجهة هذه البساطة الضالة يقول تعالى في سورة الفرقان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾[1].

ونضيف فنقول لهؤلاء هل يُعقل أن نتمكن نحن البشر المخلوقين من رؤية الخالق الجبار؟... إننا نعجز ويستحيل علينا أن ننظر إلى الشمس (وهي واحدة من ملايين النجوم) نظراً مباشراً وسيُصاب الذين يباشرون النظر إليها بكف البصر وفقدان الرؤية. وستحترق الأرض بكل ما عليها إذا اقتربت شمس أخرى اقتراباً مفاجئاً من أرضنا. فلنتصور مجرد تصوُر، شدة النور والحر المتوهج الهائل التي تواجهنا لو أن الله تعالى جلَّتْ قدرته قد تجلى وظهر عياناً لخلقه، ولنذكر أن النبي موسى (عليه السلام) سأل ربه أن يمكِّنه من مشاهدته، فأجابه الله تعالى:

﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾[2].

وإننا إذا اعتمدنا الملاحظة الدقيقة وجدنا في المخلوقات دلائل على تنظيم رائع محكم وعلى قدرة عظيمة غير محدودة، ويستحيل على المصادفة أو على القوى العمياء أن تحقق مثل هذا التنظيم الهادف أو أن تصنع أية قوانين منظمة ومتساوقة في الطبيعة. إن هذا التنظيم وهذه القوانين الدقيقة المحكمة إن هي إلاَّ دلائل على الخالق الأجل، الذي أحسن كل شيء خلقه، والذي أتقن كل شيء، سوّاه فعدَلَه وبالنظام والدقة أقامه وأنشأه[3].

آيات الله في بنية الأرض وشكلها

ورد ذكر الأرض في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة قد لا يسْمَح المجال باستقصائها كلها، ولذا فإننا نكتفي بعرض بعضها وشرح ما يمكن شرحه.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٢١ ــ ٢٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٣) يراجع في هذا الموضوع كتابنا «المدخل إلى علم النفس الإسلامي»، دار قتيبة عام ١٩٩٠، صفحة ٨٧ (المؤلف).

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[1].

ويقول:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾[2].

ويقول:

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[3].

ويقول:

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[4].

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾

لم تشأ عناية الله تعالى بمخلوقاته أن تكتفي بالخلق كيفما كان الأمر، بل إنه جلَّ وعلا قد خلق المخلوقات ثم سوَّاها:

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾[5].

والتسوية هي النظام والتنظيم، وتقوم على إشاعة التوازن والانسجام وهي عمل عظيم يجمِّل ويكمِّل عمليات الخلق. ومن يدرس الأرض ويتأمل فيها يجدها مهاداً للحياة، فهي ممهدة وصالحة بوصفها سريراً للحياة بكل مستوياتها، فالنبات ينبت ويمتد على سطحها والحيوان يتحرك وينتشر عليها ويبيت، والإنسان يعيش ويتحرك ويرتاح ويعمِّر حياته وأبنيته فوقها وينمي مشروعاته وأعماله مرتكزاً عليها، وكل ذلك يتم بتقدير العزيز العليم. إن الأرض مهاد وقد كان بالإمكان أن تكون

---

(١) سورة النبأ: الآيتان ٦ ــ ٧.

(٢) سورة الطارق: الآية ١١ ــ ١٣.

(٣) سورة ق: الآية ٧.

(٤) سورة الملك: الآية ١٦.

(٥) سورة الأعلى: الآيتان ١ ــ ٢.

وتظل كلها كتلة واحدة أو كتلاً صاعدة هابطة (جبالاً ووديانـاً عموديـة) أو مائلة ميـلاً لا يسمـح لنبات أن يستقـر ولا لحيوان أن يتحـرك أو لإنسانٍ أن يبني عليهـا وينشىء ويبدع في ربوعها.

وحتى الجبـال (التي خلقت رواسي وأوتاداً تثبِّت الأرض)، فـإنهـا قـد أنشئت بعناية الله جُدَداً، أو جادات تُيَسِّر للإنسان أن يتحرك فـوقها ويبني طـرقاتـه وممـراتـه عليها ومساكنه وفعالياته على سطوحها.

﴿والأرض ذات الصَّدْع﴾

وصف القـرآن الكـريم الكـرة الأرضيـة بـأنهـا متصـدعـة، وتتـوسـع وتنقص وتتسطح، يقول المختصـون[1] في علم الأرض: «في عام ١٩٢٠ أتى العـالم فجنر (Wegener) بنظرية مفادها أن اليـابسة من الكـرة الأرضية كـانت في الأزمنة القـديمة الأولى مؤلفة من قطعة واحدة سمّاها باليابسة العملاقة (Pangée) يحيط بها أوقيانوس واحـد، ومع مـرور ملايين السنين وبفعـل الضغط الكبير الهـائـل في بـاطن الأرض وعوامل جيولوجية أخرى **تشققت قشرة الأرض وتصدعت ولا تـزال حتى الآن تنقسم إلى قــطع أرضيـة (Plaques terrestres)** فتكـونت القـارات والمحيــطات والبحــار المعروفة. ومع تقدم علم الجيـولوجيـا وعلم رواسب الأحياء وبقـاياهـا في الصخور وطبقات الأرض ثبت نهائياً وتأكـد العلماء أن الأرض متصـدعة بشقـوق قسمتها إلى مـا بين ست إلى أربع وعشـرين قطعـة ترتكـز عليها القـارات وقيعان البحـار. منهـا القطعة الأمريكية والقطعة الأفـريقية والقـطعة الآسيـوية والقـطعة الأوروبيـة والقطعـة العـربية والقـطعة الهنـدية الأوستـرالية. كمـا أن ٩٠ ٪ من البراكين وأغلب الهـزات الأرضية تنشأ وتتمركز حول هذه الشقوق والتصدعات الرئيسة في قشرة الأرض. هذا وليس التصـدع قاصـراً على قشرة الأرض بـل إن في كل طبقـاتها التي تتكـون منهـا صدوعاً وتشققات.

---

(١) راجع الدراسة الوثائقية في مجلة رسالة الجهاد، السنة ٦، العدد ٦١، ص ٦٠.

الهـزات الأرضيـة

وفي كل يوم تنشأ تشققات وتصدعات جـزئية، بـالقرب من الشقـوق الرئيسيـة وعن هـذه التصدعـات تتولـد الهزات الأرضيـة. ويمكننـا القـول: إن علم الهـزات الأرضية كله وعلم البراكين في معظم وقائعه يرتكزان على جغرافية هذه التصـدعات وتوزُعها في القشرة الأرضية. وتسجل مراصـد الهزات الأرضيـة سنويـاً (٣٠٠) ألف هزة أرضية لا يكون لمعظمها أثر أو خطورة خلافاً لبعضها الذي يبلغ أثره إلى مرحلة الخطر المدمر التي ندعوها بالزلازل.

﴿والأرض مـددناهـا وألقينـا فيهـا رواسي وأنبتنـا فيهـا من كـل زوج بهيج﴾(١)

ومن أجمل النعم التي جاء بها الخالق الجميـل أن جعل النبـات على الأرض بهياً رائعاً فيه النضرة التي يرتاح إليهـا النظر، وقـد لفت القرآن الكـريم أنظارنـا إلى الناحية الجمالية العذبة:

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا (أي في الأرض) مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.

وقال في موضع آخر:

﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾(٢).

وهكذا، فإن البهجةَ تُعد صفة ملازمة وذاتية وضرورية للموجودات في القـرآن وليست صفـة عـارضـة يمكن أن يشعـر بهـا المتفـائلون وحـدهم ويستنكـرهـا أهـل الاكتئاب أو لا يحسون بها ولا يدرون عنها.

إن البهجة من فضل الله علينا:

---

(١) سورة ق: الآية ٧.

(٢) سورة النمل: الآية ٦٠.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١).

﴿أأمنتم مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾(٢)

المَوْر هو التحرُك ذهاباً وإياباً. قال الضحاك تموج موجاً. والمَوْر إذن هو الدوران، وسبحان الله! فإن العلم الحديث يقول إن طبقات الأرض تسير وتجري وتدور تحت قشرتها الخارجية. وقد أشار القرآن إلى هذا منذ ١٥٠٠ عام بينما لم يدرِ به العلماء إلاَّ في العصر الحديث.

موجز القول

إن آيات الله في الآفاق عظيمة وجليلة، تصوِّر قدرة الله وعظيم لطفه وتقديره، إنها رائعة في حسنها وجليلة وباهرة حينما تتجلى في الصور الوادعة المفْعَمة بالحكمة والدقة والبهاء. وهي من ناحية أخرى آيات مروعة رهيبة، يكتنفها الهول إذا تجلَّت في الصورة المنذرة والتي تهدد بالعقاب لمن يلزمه العقاب:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾(٣).

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾(٤).

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾(٥).

وهذا غيض من فيض، وآيات محكمات قبسناها من محكم التنزيل كتاب الله الكريم.

* * *

(١) سورة الملك: الآية ١٦.
(٢) سورة يونس: الآية ٥٨.
(٣) سورة الزلزلة: الآيات ١ ــ ٥.
(٤) سورة الملك: الآيتان ١٦ ــ ١٧.
(٥) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٤ ــ ٢٥.

آيـات الله في الآفاق جميلة جليلة وأخـاذة، لأنها تنقـل الإنسـان وتحمله إلى عالم التجاوز (Transcendant) أو عالم التسامي (Sublime)، وهو عالم ما بعد الحس والحواس إنه عالم التأمل والخشوع والصمت والعبادة. وجِّه أنـظارك إلى آخر الأفق وقت الغروب، وانظر إلى الشمس وهي تودع جانباً من الأرض في آخر النهـار لتطل على جـانب ثانٍ في آخـر الليـل، كم هي عـظيمـة تلك الشمس ورائعـة! جـلَّ مَن خلقها! إن الكلمات لتعجـز عن حقيقة الـوصف، «كلماتنـا من جليد فكيف نلتمس من داخلها النيران».

إن ساعة الشروق وساعـة الأصيل سـاعتان من عمـر النهار، همـا ومضتان من أيام الليل والنهار، وخلالهما ترتدي الشمس أجمل أثوابها، وأكثرها شفافية وأحفلهـا بالألوان: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[1].

---

(١) سورة طه: الآية ١٣٠.

جـرِّب أيها القـارىء أن تسبِّح الله في الصبـاح الباكـر أو في الأصيل، مجِّـده بصـدق وصفاء وحضور قلب، سترى بصيرتك وقد غمرها فيض من النور وتُحس من أعماقك بالرضى يستقر في طويتك. أيها القارىء الكريم إن جمال الشروق والغـروب وروعة انتقـال الليل إلى النهار وتحوُّل النهار إلى الليل ومنظر الجبـال الرهيبـة والبحيرات السـاكنة والبحـر اللامحدود والوهاد الصامتة والغابات الصاخبة؛ كل هذا يمثل بين يديك ويمتد أمام عينيك، فيجذبك ويشدك؛ وحين تكون لك البصيرة المتفتحة وتكون جديراً بالرؤية النقية، سترى أن هذه الصور وإن كانت ترتسم من خلال حواسك لكنها قادرة على أن تحملك إلى عالم أكبـر وأغنى وأحفل، عالم المعاني، والإدراك وما بعـد الإدراك حيث التأمـل والخشوع والعبـادة. والمرجَّح أن هذا هو عالم الرضى وإغناء الروح.

يقـول «بورمـان»، أحد رواد الفضـاء، حين انتهت رحلتـه وشـرع يعـود إلى الأرض: «حينمـا اقتربتُ من الأرض أخـذ قلبـي يكبر، هـا هي زرقة المحيـطات تتوضـح أمـام عيني وتحيط بالقارات الذهبية، ومن خلال الزرقة والصُفرة تبـدو السحب البيضاء، وتملُكني فـرح لم يخامرني من قبل، فرحٌ غمرني بالأمل الكبير جعلني أتوجه إلى الله بنـداءٍ قلبـي وابتهال: شكراً لك يا رب أنك خلقتنا فوق الأرض أروع وأجمل مملكة بين الكواكب والنجوم، كيف نشكرك يا إلهي أنك أوجدتنا على هذا الكوكب الدُري الذي يملأ العيون بالبهاء...».

الفصل الثاني

الشمس

الشَّمْسُ(١)
مُفَاعِلُنْ نَوَوِيٌّ هَائِلٌ

﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾

الشمس كرة هائلة ضخمة من الغازات الساخنة تزيد في حجمها بملايين المرات على كرتنا الأرضية، إن هذا القرص اللامع الذي يملأ الدنيا بالضياء ما هو إلا نجم عادي ضمن ملايين النجوم الأخرى التي يشاهدها المختصون الفلكيون ضمن مجرة درب التبانة فيكون في ذلك الحزام اللامع الذي يُرى من الأرض ويمتد خلال سماء الليل. ولكن جميع النجوم الأخرى بعيدة جداً عنا لدرجة أننا نراها كنقاط ضعيفة الإضاءة حتى بأكبر المناظير.

ويحتاج ضوء تلك النجوم إلى سنوات عديدة حتى يصل إلى الأرض. أما ضوء الشمس فيصل إلينا بعد أن يغادر سطحها بثماني دقائق وعشرين ثانية فقط. وهكذا فإن الشمس أقرب إلينا بعدة ملايين المرات من النجوم الأخرى، ومن هنا أيضاً يأتي إحساسنا بإشعاع الشمس فتظهر كقرص كبير في السماء. وتفوق الشمس في أهميتها بالنسبة إلى الحياة على الأرض ما يزيد على (١٥٠) بليون نجم آخر في مجرة طريق التبانة وحدها. والمجرات الأخرى بعيدة جداً بحيث يقل تأثيرها عن نجوم مجرتنا.

---

(١) قبسنا هذا البحث عن دراسة أثبتها الدكتور يوسف كيزك الخبير في مرصد آندريوف في تشيكوسلوفاكيا. راجع الدراسة الوثائقية الواردة في العدد ٢٨٩ من مجلة العربي لعام ١٩٨٢.

٢ كيلووات للفرد

وشمسنا ـ شأنها في ذلك شأن النجوم الأخرى ـ عبارة عن مفاعل نووي كبير، ففي أجزاء الشمس المركزية وعلى عمق (٦٥٠) ألف كيلومتر من السطح يتحول في كل ثانية حوالي (٥٠٠) مليون طن من نوى الهدروجين إلى نوى الهليوم، ولا مجال هنا (حيث تقدر درجة الحرارة بالملايين) للحديث عن الذرات وإنما عن خليط من النوى والالكترونات، وخلال تلك العملية من الاندماج النووي تتحرر كل الطاقة الشمسية أي كل ثانية (٣٨٠) تيراتيراوات[١]، ويطلق على هذه الكمية لمعان الشمس، ومن مركز الشمس تنتقل الطاقة المتحررة على شكل إشعاع كهرومغناطيسي في اتجاه السطح الذي يطلق عليه اسم الفوتوسفير أو الكرة المضيئة.

ومن هذه الكرة المضيئة (الفوتوسفير) يتم إشعاع طاقة الشمس في الفضاء المحيط وقليل جداً فقط من إشعاع الشمس هو الذي يصلنا إلى الأرض، فلا يزيد هذا النَّزْر اليسير على جزء أو اثنين من بليون جزء من إشعاع الشمس كله أي (١٨٠) ألف تيراوات. وعلى رغم صغر هذا الجزء فإنه يمثل فيضاً هائلاً إذا نحن قارناه باستغلال البشرية من الطاقة. ذلك أن كمية الطاقة التي يستعملها الإنسان تبلغ (٨) بلايين كيلوجول أو (٨) بلايين كيلووات لكل ثانية، أي (٨) تيراوات لكل ثانية. فإذا قسمنا هذه الكمية على (٤) بلايين آدمي يعيشون فوق هذا الكوكب لاتضح أن نصيب الفرد في المتوسط هو (٢) كيلووات. ويزيد معدل الاستهلاك في الدول الصناعية عن هذا المتوسط ليصل (١٠) كيلووات، بينما يقل في الدول الفقيرة ليصل إلى (١,٠) كيلووات. وإذا كانت الأرض تتلقى كما ذكرنا (١٨٠,٠٠٠) تيراوات، بينما تستهلك البشرية (٨) تيراوات فقط فإنه يبدو جلياً أن الشمس تعطينا طاقة تبلغ (٢٢) ألف مرة زيادة عما نحتاجه نحن البشر. ولهذا فإن الطاقة الشمسية تُعد أكثر من كافية لتغطية حاجات الإنسان على الأرض. وأكثر من

---

(١) تيرا = مليون بليون.

هـذا فإن الإشعـاع الشمسي يعد مصـدراً لا ينضب للطاقة، وقـد قـدر الفلكيـون أن الشمس فيها من الهيدروجين في جزئها المركزي ما يكفي لإطلاق كميـة من الطاقـة على المستوى الحالي لأكثر من خمسة بـلايين عام آخـر. هذا وإن الشمس مصـدر نـظيف للطاقة، ولا يسبب أي تلوث في البيئـة كمـا هي الحـال في مصـادر الـطاقـة الأخـرى (مثـل الفحم والـزيت واليـورانيـوم) وليس هنـاك من شـك في أن الـطاقـة الشمسية سوف تغدو أهم مصدر للطاقة للأجيال القادمة. ومن دراسة توزيع الإشعاع السـاقط على سطح الأرض نتبين أن بـلاد العـرب والمسلمين غنيـة جـداً بـالـطاقـة الشمسية بلا حدود.

وقبل أن ندخل في بعض الاستخدامات العملية للطاقة الشمسية يجـدر بنا أن نذكر أن جميع مصادر الـطاقة التي نستخـدمها حـالياً (بـاستثناء مفـاعلات الانـدماج النووي والطاقة الحراريـة الأرضية) مصـدرها الشمس، فـطاقة الـرياح وطـاقة المـاء والزيت والفحم والغاز الطبيعي والخشب وقوة الحيـوانات مـا هي إلا إشعاع الشمس قد تحول واختُزن في صورة أو أخرى.

الطاقـة الشمسـية

تأتي الطاقـة الشمسية صـادرة عن الشمس في صورة إشعـاع ويسقط على كل متـر مربـع خارج الغـلاف الجـوي الأرضي حـوالي ١,٤ كيلووات، وهـذه الكميـة تسمى بـالثابت الشمسي، وبـالطبـع فإن شـدة الإشعـاع أقـل من ذلـك على سـطح الأرض بسبب فقـد إشعاعـات كثيرة بـالامتصاص والانعكـاس الجزئي أثنـاء اجتيازه الغلاف الجوي الأرضي، وفي أثناء الليل لا يصل إشعاع الشمس إلى الجزء المظلم من الأرض، وبـالرغم من ذلـك فإن الإشعـاع الكلي الواصـل إلى الأرض على متر مربع من الصحراء الكبرى أو شبه الجزيرة العربية خلال عام يبلغ (٢٠٠٠) كيلووات ساعة أو (٨٢٢) جول كل ساعة ومساحة الصحراء الكبرى تبلغ وحـدها (٧) مـلايين كم^{٢}. **ومن هنـا يسهل حسـاب أن جزءاً صغيـراً من الصحـراء (مليـون كم^{٢} مثـلاً) سوف يكفي لإنتاج (٥٠) تيراوات كهربـاء، أي أكثر بست مـرات مما تحتـاجه كـل البشرية في الوقت الحاضر.**

ولكن المهم أنه يصعب تخزين الطاقة الشمسية أو استعمالها مباشرة، لذلك لا بد من تحويلها إلى أشكال أخرى من الطاقة تنفعنا في الصناعة والنقل والزراعة والاستهلاك المنزلي، إننا نحتاج لطاقات حرارية وأخرى كيماوية وثالثة كهربية ورابعة ميكانيكية. وللإيضاح نورد بعض الأمثلة على تحويل الطاقة الشمسية إلى أشكال أخرى.

● **تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة حرارية**: إذا سقطت أشعة الشمس على جسم داكن اللون فإنه يقوم بامتصاص الطاقة الشمسية، أي تتحول إلى طاقة حركة لجُزيئات الجسم الداكن أي يزداد محتواه الحراري فترتفع درجة حرارته. وفي الطبيعة ومن حولنا نلاحظ أن عملية الامتصاص من الأمور الشائعة، فحوالي (١٢٠٠٠٠) تيراوات من إشعاع الشمس البالغ (١٨٠٠٠٠) تيراوات في أعلى الغلاف الجوي الأرضي يتحول إلى حرارة تدفىء الأرض بقيم تتراوح بين (٣٥٠٠٠) تيراوات في الأجزاء العالية في الغلاف الجوي الأرضي و(٨٥٠٠٠) تيراوات قريباً من سطح الأرض وبغير هذا التحول للطاقة الشمسية بالامتصاص يغدو كوكبنا جسماً بارداً لا تزيد حرارته عن (٢٦٣) درجة مئوية تحت الصفر.

وتوجد عدة تصميمات لاستغلال امتصاص أشعة الشمس بطريقة أكفأ مما يحدث في الطبيعة، وغني عن البيان ذلك المجمع الشمسي المسطح، فالجزء الأساسي في هذا المجمع عبارة عن سطح أسود من لوح معدني، ويغطى الصندوق المعزول بزجاج يحمي السطح الماص من فقد الإشعاع، وبداخل الصندوق نظام من الأنابيب المعدنية متصلة بالجهاز وتعمل على انتقال الحرارة بسهولة مع جريان الماء أو أي سائل آخر من خارج الصندوق. ويمكن تخزين الماء لحين الاستخدام فيما يسمى سخان الماء الذي بدأ استخدامه في البلاد العربية. هذا وإن المطبخ الشمسي تطبيق آخر يتم فيه طهي الوجبات بواسطة الإشعاع الشمسي، وهذا الفرق عبارة عن مرآة على شكل قطع مكافىء، ويتم بواسطة المرآة تركيز أشعة الشمس في بؤرة تمثل شعلة الطهي، وفي الأماكن المعزولة عن مصادر الطاقة الأخرى (مثل الجهات الصحراوية) أثبت المطبخ الشمسي أنه فعال ونافع لطهي الوجبات.

وهناك أفران شمسية كبيرة تصلح لأغراض التعدين والكيمياء وتصل درجات الحرارة في بؤرتها إلى حوالي (٤٠٠٠) درجة مئوية. ومُقطِّر الماء الشمسي يستخدم ماء البحر لإنتاج ماء صالح للشرب والزراعة. وما ذلك إلا محاكاة لما يحدث في الطبيعة من دورة المياه ولكن على مقياس أصغر وبطريقة أسرع فالحرارة الناتجة من امتصاص الإشعاع الشمسي تعمل على تبخير جزئيات المياه تاركة وراءها كل الشوائب والأملاح والميكروبات وتتكاثف جزئيات الماء عندما تقابل سطحاً بارداً، ويتم تجميع الماء النقي الصالح للشرب في خزانات. ويلزم إضافة بعض المعادن لهذا الماء ليصبح صالحاً تماماً للشرب.

● **تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كيماوية**: ويمكن تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كيماوية ومثال ذلك استعمال الطاقة الشمسية لتحليل الماء إلى غازيه (الهيدروجين والأوكسجين) فبتكسير جزيء الماء يتم تخزين طاقة. وعندما يَتَّحد كل من الهيدروجين والأوكسجين (في احتراق الهيدروجين) تتحرر الطاقة المختزنة ثانية على شكل حرارة، ولعل أحسن تحويل كيمائي لأشعة الشمس أو طاقتها هو التمثيل الضوئي.

فالنباتات الخضراء تستخدم ثاني أكسيد الكربون والماء كمواد خام تنتج عنها (باستعمال الطاقة الشمسية) جزئيات عضوية معقدة (مثل السكر والنشاء وغيرها)، وهذه الجزئيات تستخدم كغذاء لبقية الأحياء على سطح الأرض، وفي الغذاء تخزن الطاقة الشمسية التي تتحرر بالتنفس، أي بتكسير الجزئيات المعقدة إلى ثنائي أكسيد الكربون والماء. لهذا فإن التمثيل الكلوروفيلي عبارة عن بوابة يدخل فيها الإشعاع الشمسي للمجال الحيوي كله[1]. وفي النهاية تتغذى آكلات اللحوم على آكلات العشب. ذلك العشب الذي تكونت فيه المواد الغذائية بواسطة الإشعاع الشمسي.

● **تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كهربائية**: من الصعب أن نتصور حياتنا

---

(١) تأمل قوله تعالى: ﴿سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى الذي خلق فسوَّى... والذي أخرج المرعىٰ (النبات) فجعله غثاءً أحوىٰ﴾ سورة الأعلى.

بدون كهرباء. وهناك عدة طرق للحصول على الكهرباء من الإشعاع الشمسي. ففي البطاريات أو الخلايا الشمسية يتم تحويل الإشعاع الشمسي مباشرة إلى كهرباء، وأفضل الأنواع المعروفة هي خلايا بلورات السيليكون المطلية في سطحها بعناصر خاصة، وينتج من الإشعاع الساقط على الخلية فرق طاقة يمر من خلاله تيار كهربائي. وتبلغ كفاءة التحويل في الخلايا الجيدة جداً حوالي عشرين في المائة، وأحسن خلية معملية (خلايا التاندام) تعطي ٣٥٪ وإذا كان كل متر مربع من الصحراء العربية يستقبل (٢٠٠٠) كيلووات ساعة من الإشعاع الشمسي كل عام، فإن هذا يمكن أن يعطي كفاءة التحويل العادية (٢٠٪) أي حوالي (٤٠٠) كيلووات ساعة كهرباء كل عام وكل كيلومتر مربع يعطي بهذا (٤٠٠) مليون كيلووات ساعة كل عام تساوي (٤) ملايين جنيه بواقع قرش واحد للكيلو. فالصحراء الكبرى وحدها مساحتها (٧) ملايين كيلومتر مربع!! فتأمل.

هذا ويمكن الحصول على كهرباء من الإشعاع الشمسي مروراً بالتحول الكيميـاوي، تحليل الماء إلى جزأيه: الهيدروجين والأوكسجين ثم حرق الهيدروجين ليتحد بالأوكسجين فيعطي طاقة حرارية تستعمل في تشغيل ميكانيكي لمحطات كهربائية حرارية، وقد تم بالفعل اختبار صلاحية مثل هذه الطرق وغيرها. ويجدر بنا أن نذكر مشروعين حديثين لإنتاج الكهرباء من الإشعاع الشمسي يستعين الأول بالفارق في درجة الحرارة بين سطح المحيطات وأعمق الأماكن فقد وجد أن درجة الحرارة عند سطح المحيط في المناطق الاستوائية تبلغ بين ٢٥ ــ ٢٨ درجة، بينما تبلغ درجة الحرارة في الأعماق حوالي ٥ درجات على عمق حوالي ٤٠٠ متر، ويمكن صنع آلة ضخمة تعمل بفارق درجة الحرارة لتقوم بتوليد الكهرباء على نطاق واسع، وقد تم تصميم مثل هذا المشروع في كل من كوبا وأفريقيا.

أما المشروع الثاني فهو عبارة عن قمر صناعي يدور على ارتفاع حوالي (٤٢) ألف كيلومتر فوق سطح الأرض ويقوم هذا القمر بدورة حول الأرض كل (٢٤) ساعة وفي نفس اتجاه دورانها. وبذلك يظل ثابتاً في مكانه في الفضاء بالنسبة للأرض وبتغطية أجنحة كبيرة لهذا القمر بخلايا شمسية نستطيع تجميع قدر كبير من

الطاقة الشمسية (التي لم تضعف بسبب عدم مرورها بالأجزاء الكثيفة للغلاف الجوي الأرضي)، ويتم تركيز هذه الطاقة وبثها في صورة موجات كهرومغناطيسية قصيرة الموجة إلى محطات استقبال أرضية. إن مثل هذا القمر الصناعي يمكن أن يعمل ليلاً نهاراً ويرسل حوالي (١٠) ملايين كيلووات من الطاقة الكهربائية إلى سطح الأرض وعلى مثل هذا المشروع أن يجتاز مناقشات حامية قبل إقراره ليبدأ تشغيله في التسعينات من هذا القرن.

● **تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة ميكانيكية**: يمكن الحصول على الطاقة الميكانيكية بطريقة غير مباشرة مروراً بالتحويل الكيمياوي أو الكهربائي. وتوجد حالياً مختبرات لمثل هذه التحويلات على شكل سيارات أو طائرات تستخدم الطاقة الشمسية كوقود. وجدير بالذكر أن أمريكياً كان قد صمم في بداية هذا القرن نظاماً للري يعمل على الطاقة الشمسية.

إن ماهية الطاقة الشمسية وكيفية استخدامها قد أصبحتا معروفتين، ولكن شيوع استخدامها سوف يتطلب على الأقل نصف قرن من الزمان، وعلينا ألا ننتظر ريثما يقوم الآخرون بهذه المهمة بل أن نسارع نحن المسلمين إلى استخدامها والانتفاع بها.

* فنحن المسلمين نقطن بلاداً أظهر ما فيها الشمس.
* والشمس أعظم منبع إلٰهي للطاقة على كوكب الأرض.
* وهي طاقة نظيفة بصورة مطلقة.
* ومسخرة وقليلة التكاليف بلا حدود.

● ● ●

الفصل الثالث

تلوث البيئة

تلوث البيئة

تلوث البيئة وتآكلها

قال تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1].

تحدثنا عن الشمس وتبينّا عظمة الخالق إذ جعلها طاقة نظيفة صالحة للحياة وها نحن نتحدث الآن عن وجوه التصرف التي يتصرف بها الإنسان بالطاقة النظيفة فيفسدها ويهيئها للدمار برعونته فنقول:

تتعرض البيئة التي تحيط بالكرة الأرضية إلى تغيرات فتاكة وجذرية رهيبة تهدد الحياة بالتراجع، وتفسد البيئة فتقضي على كثير من مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية وذلك منذ أن بدأ الإنسان حضارته الصناعية.

هناك أنهار تجف، ومحيطات يمكن أن تفيض، وجليديات (ظلت جامدة ألوفاً بل مئات الألوف من السنين) تتعرَّض لاحتمالات الذوبان. وإذا بدأ ذوبانها فسيرتفع منسوب المياه في كثير من المحيطات والبحار، فيختفي كثير من المدن الساحلية تطغى عليها مياه البحار.

لقد لاحظ العلماء تزايد درجات الحرارة في أوروبا بشكل واضح في الصيف الماضي وما قبله، وفجأة بدأت بلادنا وبعض الدول الأوروبية تشهد عواصف

(١) سورة الروم: الآية ٤١.

وأعاصير لم تكن تعرفها ولم تعتد عليها من قبل. . . وفجأة أيضاً بدأ العلماء في مختلف دول العالم يهتمون بظاهرة «التغيرات المناخية» خصوصاً بعدما اكتشف ثقب الأوزون الذي عرفه معظم سكان الأرض الذي يعني تصدعاً في سماء الكرة الأرضية وما ندري إن كان ما يشهده العلماء ــ أعني علماء البيئة ــ اليوم يمثل تحقق ما ورد في كتاب الله تعالى إذ يقول:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾.

وفي كل الأحوال يتوقع العلماء اليوم تغيُّرَ خريطة الكوكب الأرضي خلال العقود الخمسة القادمة وتبدل أشكال الحياة إذا ظلت الأمور على حالها، وفي هذه الأيام تظهر النتائج التي تجمعت أسبابها منذ أن قامت الثورة الصناعية إلى ظهور تصدع في طبقة الأوزون.

وفي هذه الأيام يتداعى العلماء أيضاً إلى مؤتمرات غرضها «احتواء الأزمة العالمية» في سائر أنحاء العالم لعل أهمها:

بروتوكول مونتريال ومؤتمر هلسنكي ومؤتمرات وندوات بحث أخرى نسمع بها وتَذيعُ أنباؤها على سكان الأرض.

بروتوكول مونتريال

عقد في خريف عام ١٩٨٧ في مونتريال في كندا بروتوكولاً خاصاً لدراسة أسباب الأزمة الخاصة بالأوزون ثم تمت المصادقة على مقررات هذا البروتوكول من قبل الدول الصناعية الكبرى. وقد تجمعت المقررات توصي بخفض استعمال أنواع من مركبات (الكلوروفلورو كاربونات) وتستعمل هذه المركبات في شتى أشكال البخاخات ابتداءاً من مستحضرات التجميل وانتهاءاً ببخاخات مستحضرات أثاث المنازل والمشافي ووسائل النقل وهي تدخل في صناعة البرادات وصناعة الوسائل المذيبة والرغوات البلاستيكية.

فهذه الأصناف الخمسة تؤذي طبقة الأوزون وذلك لأن جزئيات هذه المواد الخمسة تظل محافظة على تركيبها وترتقي في الهواء المحيط بالأرض عشرات

الكيلومترات إلى أن تصل إلى طبقات الفضاء العليا حيث يتسنّى لها القيام بإتلاف طبقة الأوزون. وقد وافقت ٢٤ دولة صناعية على تخفيض إنتاجها من هذه المركبات بنسبة ٥٠ ٪ حتى العام ١٩٩٩ لكن تعديلاً لاحقاً طرأ على نصوص هذا البروتوكول يقضي بحظر كامل على إنتاج هذه المركبات في نهاية عقد التسعينات[1].

مراحل وفصول الأزمة

لم تتكون أزمة انحطاط البيئة في يوم أو شهر أو سنة بل تكونت خلال أزمنة طويلة على مراحل عدة يمكن أن نلخصها فيما يلي:

١ ـ **الفصل الأول**: بدأت الثورة الصناعية باكتشاف الكاربون واستعماله الصناعيون في تحريك المعامل ودفع القطارات وذلك في منتصف القرن الثامن عشر، ومنذ تلك الأوقات والكرة الأرضية تشهد التدمير المتواصل للبيئة المحيطة بالأرض، أبيدت من خلال تلك الأوقات الكثير من الغابات من أجل السكك الحديدية، وسارت حركة اقتلاع الأشجار وإبدالها بالمصانع تنفث الدخان وأنواع السموم، وبديلاً عن المراعي الخضراء تعرىٰ سطح الأرض وأخذ الحجر في بناء المساكن يقوم بديلاً عن الشجر في البراري وبدلاً من الأشجار التي كانت تنقي الأجواء وتصفي الهواء امتدت المداخن تملأ الهواء بسموم المعامل.

٢ ـ **الفصل الثاني**: تضاعفت أعداد المعامل بصورة مذهلة. وتضاعفت أيضاً نفايات هذه المصانع ولم تجد سوى مياه الأنهار والبحار ملجأ لها. فتراجع النبات واعتل الحيوان وانعكس ذلك على حياة البشر فتراجعت صحة الإنسان.

---

(١) قبل إنجاز طباعة كتابنا هذا عُقد في (ريو دو جانيرو) بالبرازيل مؤتمر لحماية الغابات دُعي باسم مؤتمر قمة الأرض وذلك خلال شهري مايو وحزيران ١٩٩٢ وظهر في هذا المؤتمر خلاف كبير وواضح بين فرقاء المدافعين عن صحة البيئة والمدافعين عن صحة جيوبهم (هؤلاء الذين تأتيهم الأرباح غير المحدودة من جرّاء قطع الغابات في الأمازون. وانتهى المؤتمر بإقرار مبادىء عامة لحماية التربة والبيئة والأرض، ولا أكثر).

٣ ـ **الفصل الثالث**: دمرت غابات كثيرة وأهمها الأمازون التي كانت مصدراً من مصادر المطر وحجمها يساوي حجم أوروبا كلها! . . . وذلك طمعاً في أثمان الأخشاب المستخلصة منها وأخذت تتصاعد في الفضاء أدخنة البترول من المعامل الضخمة وأرتال السيارات بلا نهاية. أشارت إحصاءات الأمم المتحدة أن ما يصنعه البشر إذ يزرعون هكتاراً من الأشجار الصغيرة بهدف تكوين غابة جديدة فإن ما يقابل هذا الهكتار من المزروعات إبادة عشرة هكتارات من أشجار الغابات الكبيرة المعمرة! . . . .

٤ ـ **الفصل الرابع**: احتار البشر وعلى وجه الخصوص منهم المجتمعات النووية في العثور على الأمكنة الملائمة لدفن النفايات السامة التي تنتج عن الصناعة الذرية بكل أشكالها وأنواعها. وما تزال هذه الحيرة تتجلى في أنواع وضروب من الاحتيال على المجتمعات التي يسودها الجهل حيث يسعى رجال الفعاليات الذرية بفتح مقابر لتلك النفايات، فتكون مبعثاً لكثير من أسباب انحطاط البيئة وتلوثها.

٥ ـ **الفصل الخامس**: برزت أزمة الأوزون وظهرت في صورتين اثنتين:

(أ) ثقب الأوزون في الطبقات المرتفعة فوق الأرض.

(ب) تزايد نسبة الأوزون في الفضاء المحيط بسطح الأرض.

ففي الصورة الأولى تعاظم الثقب الأوزوني حيث وصل إلى مساحة تقدر بضعفي مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ويبدو أن هذه المساحة لا تتوقف بل تتزايد رقعتها عاماً بعد عام، الأمر الذي يؤدي إلى تزايد سخونة الأرض (وفي هذا الموضوع يتعاظم قلق الدول الأوروبية في حين أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تعير اهتماماً كبيراً في الوقت الحالي لمشكلة تعاظم سخونة الأرض بقدر ما تهتم ببعض الأمور التي وصفوها بأنها غامضة وتتطلب فهماً أفضل وأعمق).

أما الصورة الثانية (التي تقوم على تزايد نسبة الأوزون في الجو المحيط بالأرض). فيُرجع علماء البيئة حدوثها إلى احتراق وقود السيارات الذي يولد الكاربون. مما يؤدي إلى تخرشات العيون واحتقانها وإلى أضرار تلحق بالرئتين عند

أبناء البشر، كما يسبب متاعب مرضية أخرى يصعب شفاؤها (ولعل أهمها عجز الرئتين عن طرد ألياف الأزبستوس وتزايد الخطر بالإصابة السرطانية لهذه المادة)، ويحدث هذا عندما يتعرض الإنسان لمستويات كبيرة من غاز الأوزون.

الآريلامينات

في ندوة طبية متخصصة حذر الدكتور (والتر كوزمبو) من خطر المواد الكيماوية المعروفة باسم الآريلامينات، وأبان أن هذه المواد يمكن أن تتلف الخلايا البشرية في الرئتين، إذا ما امتزجت مع هواء المدن المعاصرة المشبعة بنسبة عالية من الأوزون، وبالمناسبة يذكر الكيمياويون أن عدداً كبيراً من مصانع الأصباغ والمطاط والنسيج تستخدم الآريلامينات في عمليات التصنيع، فهذه المادة لا تُحدث بنفسها الأضرار الكبيرة التي ذكرناها في الرئتين، ولكنها تصبح في منتهى الخطورة حينما تمزج مع غاز الأوزون فيغدو الخليط غازاً قتالاً يسبب سرطان الرئة.

وقد ذكر الدكتور (كوزمبو) أن دخان السيجارة الواحدة يحتوي على ١٦ ميكروغرام (١٦/١٠٠٠ من الغرام) من مادتي الإيتلين والنوليودين، وهكذا فإن الباحثين يؤكدون أن استنشاق دخان التبغ مع ما يتوفر في الجو من الأوزون يمكن أن يسبب إصابات بسرطان الرئة تفوق نسبة الإصابات إذا ما تم استنشاق دخان التبغ وحدَه.

المطر الحامضي

حينما تتصاعد الغازات السامة من مداخن المصانع مثل أوكسيدات الكبريت، تمتزج نسبة كبيرة منها مع قطرات المطر المتجمعة في الغيوم قبل هطولها، فإذا ما هطلت تلك الأمطار فإنها تكون القطرات الحامضية والمطر الحامضي؛ وهذه الأمطار تحدث أضراراً كبيرة في الطبيعة إذ تسبب هجرة الأسماك، وضياع كميات من الثروة الحيوانية المائية كما أنها تسبب تصدعاً في تربة البساتين والغابات ويؤدي هذا التصدع إلى تراجع المحاصيل الزراعية. ومع استمرار هطول المطر الحامضي يؤدي إلى موت أصناف كثيرة من الكائنات الحية في أعماق البحيرات والتجمعات

المائية المعزولة (الفساد في البحر) كما يؤدي إلى أذيات صحية تلحق القاطنين في المدن الصناعية ذات الأجواء الممطرة. وإلى الأضرار بهياكل الأبنية الخارجية وصفائح المراكب والسيارات (الفساد في البر).

غاز الهالون

يستخدم هذا الغاز في أنظمة الكومبيوتر في التنبيه من خطر الحرائق. ومن شأن الهالون هذا أنه يحدث أضراراً بطبقة الأوزون وهي أشد من أضرار (الكلوروفلورو كاربون) إذ بينما تؤذي المركبات الأخيرة طبقة الأوزون في شروط توفر ضوء الشمس، فإن ضرر الهالون يستمر في أذاه بوجود أشعة الشمس أو بدونها.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

البَابُ الثَّانِي

من آيَاتِ اللهِ فِي الأَنْفُسِ

* النحل والنمل.
* مكتشفات في نفسية الجنين.
* وفي النوم آيات يكشف بعضها العلم.
* والأحلام عالم من الفكر والرؤىٰ.
* وكشوف حقّ في التنويم المغناطيسي.
* إنها حقائق وآيات.
* خاتمة الكتاب «من أجل تنمية الطاقات الرّوحية».

سُورَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ
لِلنَّحْلِ وَالنَّمْلِ

لقد أظهر العلماء المحدثون الشيء الكثير المميز عن حياة النحل والنمل. وقدموا صوراً في منتهى الروعة عن حياتهما، تفوق الخيال وتصيب الإنسان في ذهول وتمجّد خلق الله.

وقد سبق كتاب الله تعالى عمل العلماء بألف وخمسمائة عام وخصّص لهما سورتين تكشفان عن فطرة الله وحكمته البالغة، وتحدثاننا عنهما بأفصح لسان وأنصع بيان.

وقبل التعمق في البحث نرى أن من واجبنا أن نحدّد مفهوم الفطرة ونكشف عن فحواها وآفاقها.

* * *

معنى الفطرة:

جاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي: «أن الفطرة هي الخلقة التي خلق الله تعالى المولود في رحم أمه، هذه الخلقة هي موئل الروح والجسد». وتُضاف إليها إشارات وردت في القرآن الكريم تجتزئ منها ما يأتي:

- قول النبي يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ﴾ [يوسف: ١٠١].
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر: ٣].

- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].
- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

هذه أمثلة قبسناها من مئات وآلاف من الآيات وردت في كتاب الله تتحدث عن مجالات الفطرة وتتناول كلها معرفة وهداية تجعلنا نستنير بنور الله ونستجلي آفاق الحكمة، حكمة الله في خلقه.

وإذا تساءلنا عما أورده العلم الحديث في ذلك طالعتنا وجوه الفطرة:

- في الطبيعة المليئة بالأسرار في البر والبحر والجبال والغابات والسماء والنجوم... والأشجار.. إلخ.
- وفي النبات وقد أعدّه الله غذاء وبهجة يملأ أديم الأرض ويهيمن على توازن الرياح.. وأجواء الأرض.
- وفي الحيوان العجيب الغريب بأنواعه وأشكاله وخصائص طبعه وتكوينه وسلوكه وأساليب عيشه.
- وفي الإنسان خليفة الله في الأرض، السيد المتصرف بما في الأرض، مستخدماً ما آتاه الله من عقل مدرك وعاطفة ورخاء ومن حب للعمل وميل إلى الخير وتذوّقٍ للمآثر والجمال.

تجليات الفطرة في جماعة النحل

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[1].

(١) سورة النحل: الآيتان ٦٨ ــ ٦٩.

هناك تشابه كبير بين جماعتي النحل والنمل، وقد أورد المولى تعالى في كتابه العزيز سورتين اثنتين سمى إحداهما سورة النحل والأخرى سورة النمل.

وتتشابه الجماعتان في أسلوب حياتهما فكلتاهما مفطورة على السعي والدأب ومتابعة العمل بلا هوادة، وكلتاهما مفطورة على التنظيم وتقسيم العمل بين العاملات في الخارج والقائمات بتنظيم الحياة في الداخل بما تتطلبه الحياة من تدبير الغذاء والنظافة وتكييف الجو، وتربية الصغار والمواليد والإشراف على النظام... إلخ. وكلتاهما تسلم أمرها إلى ملكة تملك وتشرف وتهيمن.

فعاليات فطرية:

كثيرة لعل أهمها ما يلي:

١ ـ النحل هي الحشرة الوحيدة التي تدخل في حياة الناس وتنفعهم منذ القديم، فتقدم لهم من بطونها شراب العسل المغذي وحامل الشفاء.

٢ ـ وبين النحل ذكور وعاملات: عاملات لجمع الرحيق وعاملات لاستلام الرحيق وتحويله إلى العسل وعاملات لصنع خلايا الشمع ومن شأن هذه الخلايا أن تصون العسل وتحميه من الفساد فيظل محفوظاً في داخلها سليماً بعيداً عن الفساد ومحتفظاً بخصائصه ومزاياه.

يقول الباحثون في التعليق على آية النحل: «إن الله تعالى فطر النحل وألهمها أن تتخذ بيوتها بأشكال سداسية، فهذا الشكل هو الوحيد الذي لا يدع الفُرُجات بين مسدس وآخر (خلافاً للأشكال الرباعية أو الخماسية) وبذلك يصبح البيت موحداً وبمثابة قطعة واحدة.

٣ ـ في كل خلية للنحل ملكة كما ذكرنا وهي واحدة وتتميز بحجمها الكبير والغذاء الملكي الخاص الذي يُقدم لها ويهيئها أو يصيّرها ملكة.

إن الملكة هي الموكلة بالتناسل، أي بوضع البيوض، فهي تضع كل يوم في المسدسات ما بين (١٠٠٠) إلى (٢٠٠٠) بيضة.

والخلية يحكم عليها بالفناء إذا هي خلت من الملكة، لأنها إذا غابت كثر عدد الذكور من النحل الذين لا يعملون شيئاً ويستهلكون المحصول، وفي بعض الأحيان تقوم بعض العاملات بالعمل بديلاً عن الملكة الغائبة ريثما تظهر ملكة جديدة، وتملك الملكة حُمة لاسعة، لا تستعملها مع الإنسان حتى لو أساء إليها، وإنما توجهها لمكافحة ملكة أخرى ظهرت تنافسها.

٤ ـ وللملكة وصيفات تُعنى بها تنظّف جسمها وتمشط شعرها وتقدم لها الغذاء الملكي الخاص وتُعنى بخدمات أخرى.

٥ ـ ويظل الهواء داخل الخلية نظيفاً، إذ تقوم العاملات بدفع الأوساخ إذا وجدت في الخلية، كما تقوم بجعل درجة حرارة الخلية ثابتة وملائمة.

في أيام الصيف الحارة تتجمع العاملات على باب الخلية وتحرّك أجنحتها بشكل واحد متسق يؤدي كالمروحة إلى تبريد الهواء الداخلي.

وفي أيام الشتاء تتجمع العاملات فوق الأقراص فيقل السطح المعرّض للبرودة فتتصاعد بذلك درجة الحرارة.

٦ ـ تقوم العاملات بجني الرحيق بطريقة رائعة منظمة وبعيدة عن الارتجال كما يلي:

أ ـ ترسل الجماعة في الخلية فئات خاصة من العاملات يمكن تسميتها بالرائدات، ووظيفة هذه الرائدات المضي إلى الحقول لتبحث وتحدد الجهات التي تكثر فيها الزهور.

ب ـ ولا تهتم الرائدات بمجرد توفر الزهور بل هي تختار وتفحص بشكل مباشر وفطري الزهور ذات الرحيق الوافر. (سبحان الله).

جـ ـ تعود الرائدات إلى الخلية بعد عمليات الاستكشاف وتخبر المجموعة المنتظرة عن اكتشافها الزهور المقبولة وتحدّد بالرقصات الأمكنة التي ينبغي الإقبال عليها وامتصاص رحيقها.

فإذا كانت رقصات الرائدات دائرية كان هذا يعني أن مصدر الرحيق جد قريب على مسافة (٢٥) متراً كما حددها الباحثون.

وإذا كانت الرقصات بتحريك الذيول فهذا يعني أن مصدر الرحيق بعيد وأن على المجموعة العاملة أن تستعد لرحلات طويلة وشاقة[1].

د ـ وفي أثناء جني الرحيق وامتصاصه تقوم العاملات بنقل غبار الطلع المذكر (الذي علق بأجنحتها وأعضائها) إلى الأعضاء المؤنثة للزهور، فيتم بذلك التلقيح من خلال الجني، وتتحول الزهرات إلى ثمرات.

وهكذا نشهد تعاوناً فطرياً هاماً يؤكد جلال المهمة ودقتها، والتي تقوم على تبادل الخدمات بين عالم النحل وعالم الزهور!

٧ ـ تؤثر العاملات الجو المشرق في الصحو فتندفع صوب الزهور وتزور عدداً من الزهرات يقع بين (٥٠٠) و(١١٠٠) زهرة لكي تجني قطرة رحيق واحدة، أما لكي تحصل على (١٠٠) غرام فعلى النحلة أن تزور ما يزيد على مليون زهرة[2].

٨ ـ تستطيع النحلة أن تطير بسرعة (٦٥) كيلومتر في الساعة.

والكيلوغرام من العسل يكلف العاملات ما بين (١٢٠) ألف إلى (١٥٠) ألف حِملاً من الرحيق.

فلو فرضنا أن الزهور تقع على بعد (١٥) متراً من الخلية فعلى الواحدة من النحل أن تطير (٣) آلاف كيلومتر في كل نقلة[3].

٩ ـ وإن ما تستهلكه النحلات من جملة العسل المجمّع لا يعدو (٥) إلى (٧) بالمائة من المحصول ويبقى كل ما عدا ذلك تقدمة وهدية للإنسان. (يا سبحان الله).

١٠ ـ وبمجرد أن تستيقظ الجماعة في الصباح وترى الخلية وقد فرغت من العسل تهب العاملات للعمل وتتابع عملها كي تملأها من جديد. مَنْ علّم

---

(١) يراجع البحث الخاص بفعاليات النحل في كتاب «العسل» للدكتور محمد نزار الدقر، ص٤١.

(٢) المرجع نفسه: ص٤٢.

(٣) المرجع نفسه: ص٤٣.

النحلات كل هذا ومَنْ درّبها ودفعها ونسّق حياتها للعمل والنشاط؟؟.. جلَّ الخالق.

تجليات الفطرة في حياة النمل

إن أول ما يشهده الباحث الذي يطالع عن كثب حياة النمل حركاتها المتواصلة إنها تظل تتحرك وتتحرك غادية رائحة لا تقف عن الحركة والاستمرار بالصعود والهبوط ومواصلة السعي، إنها تحشد بلا هوادة وبواسطة هذه الحركات أغذيتها وأقواتها لأيام الشدة في الشتاء، إن الكل يعمل والكل يتعاون في العمل، وعلى هذا فإن في حياة النمل ظواهر فطرية لا تُحصى، يطّلع الإنسان على بعضها.

وأهم هذه الظواهر التحمُّل والتعاون. تقسيم العمل:

١ ـ تتحمل النملة الدأب وتبذل الجهود وتنوء بالحمل بشكل واضح عجيب. إن النملة الواحدة تحمل حملاً أكبر منها وأضخم بعشر مرات، وتظل تسحبه إلى بيتها إذا عجزت عن حمله.

٢ ـ وإذا ناءت بالحمل، فإنها تدور حول المادة المطلوب حملها، لتتقدم نملات أخرى غير متعبَة بمتابعة العمل، إنها تدخل على الخط وكأنها شرطة نجدة مهمتها أن تستلم المهمة، فتعمل بجدٍ واضح بسبب راحتها واستعدادها للعمل فتحقق ما بدأت به النملة المُتعبَة، وقد تمضي ساعات وساعات قبل أن تُعلن النملة عن توقفها. (سبحان الله).

٣ ـ والشيء الثالث الفطري الذي يدعو إلى التعجب في حياة النمل أن مجرد وصول الحَب إلى البيت يجعل نملات أخرى تقوم بتفتيت الحب، واستخراج الرشيم من كل حبة، فيقدم هذا العمل خدمات ذكية ونافعة، أولها الحصول على الغذاء من كل رشيم، وهو غذاء معدٌّ للجميع ولا يخص النملات التي أحضرت وتعبت به وحدها، ثم إن البدء بتناول الرشيم يحول دون فساده من جهة (حيث أنه مادة حية قابلة للفساد) كما يحول دون أن يصبح نباتاً فيغدو شيئاً حياً يمنع النمل أن تطعم به وتتغذى.

٤ ـ وفي إعداد البيت (أو بنائه) تتحاشى النمل مكان الحُفَر، فالحفرة قد يصلها الماء ويمكث فيها!.. (وهذا عمل ينافي) الحياة الداخلية.

٥ ـ وعلى افتراض أن الحَب تعرّض للبلل تقوم نملات مختصات بنشره في الهواء خارج البيت، ومنعه من أن يتعفن أو يصاب بالفساد (وهذا عمل كيميائي من أعمال الكيمياء الحيوية). سبحان الله مَنْ علّم النمل العلاقات الفيزيائية والكيمياوية.

لقد اكتفينا بالإشارة إلى أهم أعمال الفطرة في حياة النمل ولم نُشر إلى أمور فطرية أخرى تتعلق بالزواج والولادة وحماية المواليد وتنسيق المجتمع وحفظ الطعام.. إلخ، وكلها أعمال فطرية لا تقل أهمية، والسؤال هنا: «مَنْ علَّم النمل أن يقوم بكل هذه الأمور؟؟...».

مستعمرات النمل[1]:

توجد في إفريقيا الوسطى مستعمرات من النمل الأبيض، بحيث نجد في كل مستعمرة بيتاً فريداً ومتميزاً قد يصل ارتفاع هذا البيت إلى (٢٠) متراً، أي بطول عمارة للإنسان بخمسة طوابق (أدوار)!..

ولو أجرينا مقطعاً في هذا البناء الكبير لوجدنا في داخله ممرات وغرفاً مكيّفة تكييفاً هوائياً طبيعياً يحافظ على درجة حرارة مقبولة وملائمة لحياة النمل وقد تكون درجة الحرارة خارج البيت عالية مثل (٥٠) درجة مئوية!..

ولو أجرينا نسبة وتناسباً بين طول النملة وارتفاع هذا البيت لوجدنا ما يلي: يشبه الوضع بأن يبني الإنسان عمارة بطول (٤) كيلومتر!!.. وهذا شيء لا تحلم به قدرات الإنسان التكنولوجية حتى الآن، مع العلم أن أعلى عمارة بناها الإنسان حتى عام ٢٠٠٠ محددة بنصف كيلومتر (٥٠٠) متر وقد بنيت بشق الأنفس وبفضل الآلات.

---

(١) نقلاً عن شريط فيديو حول أسرار الطبيعة، إنتاج B.B.C.

وتقوم عاملات النمل المكلفة بتغذية الجماعة، بجهد يشبه رعي الأغنام عند الإنسان تضاف إليه فعاليات خاصة، وتقرض النملات العاملة بأفواهها الغذاء وتقطّعه إلى قطع صغيرة من أوراق الشجر وتمزجها بلعابها وتنقلها من المرعى إلى العش فتنمو عليها بكتيريا خاصة تتكاثر عليها بقدر كبير فعلاً، وبعد انقضاء فترة من الزمان يصبح المزيج طعاماً مطهياً وسائغاً لجماعة النمل.

وهكذا تتعهد النملات البكتريا المذكورة وتنمّيها، كما يتعهد الإنسان الأغنام ويربيها ويُعدها لغذائه.

مفارقات فطرية:

وهي كثيرة اخترنا منها أطرفها:

- يقفز «الجندب» قفزات تصل بالنسبة إلى طوله بقدر، كما لو أن الإنسان يقدر ويستطيع أن يقفز إلى (٦٠٠) قدم في الارتفاع.
- تستطيع الواحدة من «الخنافس» أن تحمل أثقالاً على ظهرها تصل إلى (٨٥٠) مرة من وزنها، ولو أعطيت هذه النسبة للإنسان لكان يستطيع أن يحمل فوق ظهره فيلاً من الفيلة الكبيرة!!...
- وكما أشرنا فإنه يتوجب على الإنسان أن يبني عمارة طولها (٤) كيلومتر، إذا أوتي قدرة النمل على صنع بنائه!!.

فسبحان الخالق العظيم الذي أعطى القدرات وجعل كل كائن مُيسراً لما خلق له.

من آيات الله في الأنفس

دراسات تجريبية في نفسية الجنين

وهي آيات باهرات لا حدّ لها ولا عدّ مفعمة بالإعجاز بكل ما هو غريب وجليل، ولكنها حقٌ كلها وصدق، تثبتها الدراسات العلمية، وتؤكدها المشاهدات والتجارب، وكلها تنطق بحكمة الخالق، وتؤكد مقاصده الفائقة من الرحمة بالإنسان وكلها تستحق المعرفة والعرفان، كما تستحق الذكر والشكر. وهي وإن كانت من تدبير حكيم خبير، ولكنها تبدو في متناول العلماء الباحثين والمحققين اليوم واضحةً جليةً لفكر الإنسان ومعقولاته.

آيات الله في الأنفس رائعة ولا تقل روعتها عن آيات الله في الآفاق، إن لم ترجحها في العمق والمغزى العميق. ومصداقية الرجحان عبر عنها القائل الذي يقول (وهو يخاطب الإنسان):

وتَحسَبُ أنّكَ جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وبعد فإن آيات الله في الأنفس لا أول لها ولا آخر وهي تتزايد مع تزايد الدهور وتعاقب الأيام يكشفها الباحثون ويعثر عليها المنقبون فتتجلى لهم جلاء النهار بعد انحسار الليل، وتتضح كوضوح الشمس بعد أن يمضي الظلام.

وهي كثيرة ومتعددة ويستحيل تحديدها أو تعدادها، وعلى الأرجح فإن ما هو مهم فيها ليس عددها أو كميتها بل دقتها العظيمة وكيفياتها الرائعة وسنجتزىء من

هـذه الآيات الفـائقة فنكتفي بـالإشارة إلى ثـلاث آيات تـوضحت في مـواطن العلم التجريبـي في العصر الحاضر.

أولها: الكشف عن نفسية الجنين قبل ولادته وهـو في بطن أمـه، وعن نفسية المولود في الأيام الأولى والأسابيع التي تلي الولادة.

ثانياً: البحث في النوم على ضوء العلم الحديث، وأحلام النوم، وما يحتشـد فيها من عجائب.

ثـالثاً: البحث في النـوم الاصطنـاعي الذي يسمى بـالتنويم المغنـاطيسي ومـا يقدمه من مفاجآت.

الفصل الرابع

من

آيات الله في نفسية الجنين

نفسية الجنين في بطن أمه

منذ عشرين عاماً أو ثلاثين على الأكثر. . . ما كان أحد من الناس يتصور أن للجنين نفسية تخصه، ينفصل فيها عن أمه، فلا العلم التجريبي ولا الطب الرسمي ولا حتى خيال المتخيلين كان يسمح بتصور أن الجنين يملك نفسية مستقلة، وبسبب أن البشر لم يكونوا يرون أو يشاهدون الجنين بصورة مباشرة إلا في حالات نادرة وخطيرة ـ قد تأتي على حياته ـ أو تُفضي إلى ولادة مبكرة فإن الناس لم يكونوا على علم بما يجري في حياته الخاصة، إلا بما تسمح به بعض الظواهر التي يغلب فيها المرض. وهكذا كنا نحكم على الجنين غيابياً أحكام الجاهلين (بفعل التصور أو الظن. . .).

كان الطب الرسمي حتى أوائل القرن العشرين يجهل جهلاً تاماً جميع ما يتعلق بالحياة النفسية ولا يعترف بها كموضوعات جدية تهم الطبيب مثلما تهمه قضايا البدن (من لحم ودَمٍ وعظم ووظائف هذا البدن) في أحوال السواء أو الانحراف.

ولكن تطور وسائل الملاحظة والمشاهدة ووصولها إلى باطن الجسم الإنساني، واستخدام التنظير والتصوير التلفيزيوني والتسجيل الصوتي والضوئي، وتقدم كل ذلك يوماً بعد يوم. أضف إلى هذا تقدم الدراسات النفسية ونضجها واحتيازها على اعتراف الطب الرسمي معتبراً إياها من الحقائق الثابتة التي تستحق الدراسة والتقدير والتي تؤثر على صحة البدن والتي يستحيل فهم الصحة والمرض

بدونها، كل هذا سمح للطب أن يصل إلى الجنين يواجهه ويراه، فيطلع على حياته العضوية وسلوكه النفسي، وقد تقدمت أساليب هذا الاطلاع وغدت من الأمور الجلية التي لا يساورها شك أو يخامرها لبْس، وهكذا أخذ الباحثون يشاهدون حركات الجنين ويُجرون مختلف التجارب لمعرفة استجاباته ومواقفه وشخصيته وانفعالاته ومزاجه. . . وأمكنهم أن يروه في حالات الانكماش والاكتئاب، وأمكنهم أن يروه في حالات الانشراح والانبساط وأمكنهم أن يروه مثلاً يمتص بشكل واضح (وهو مبتهج) بعض المواد الملذة كالسكر يضعونه في السائل الأمينيوسي (المحيط به) وأن يلاحظوه وهو يتوقف عن الامتصاص ويظهر الامتعاض حين يضعون في هذا السائل مادة مثل الليبرول (التي يشبه طعمها طعم صبغة اليود) وأمكنهم أن يروه يُبدي الانزعاج حينما تدخن أمه.

«طلب الطبيب المجرب من أم حامل في الشهر السادس كانت معتادة على التدخين أن تمتنع عن السجاير خلال ٢٤ ساعة، وفي نهاية المدة قدم لها الطبيب لفافة وما أن وضعتها في فمها وقدح لها النار ليولعها إلا وأشار المقياس إلى اضطراب قلب الجنين في اللحظة عينها، وعلل الطبيب سلوك الجنين بالمنعكس الشرطي (الذي هو نوع من أنواع التعلم)، وبهذا استدل الطب على أن الجنين يتأثر ويتعلم ثم يحتفظ بما تعلم».

وأمكن الأطباء أن يروا الجنين مضطرباً حينما تقع أمه في أزمة انفعال حاد كالغضب أو الخجل، أو في أزمة جسدية كالوقوع على الأرض أو اصطدامها بشيء من الأشياء. أمكنهم أن يروه هادئاً أثناء إنصات أمه إلى الموسيقى الهادئة ويبدي ارتياحه إليها، ويضطرب ويبدي النفور من الموسيقى الصاخبة (مثل الجرك والجاز)، وأمكنهم أن يشاهدوه رائقاً أثناء ما تغني أمه أو تهدهد له ببعض التهويمات. أما حين يسمع صوت أبيه فإنه يستجيب له بشكل قوي وينجذب له ويقف موقف المأخوذ. وتأكدوا من هذا بعد الولادة فشاهدوه يأنس بصوت أبيه ويبتسم كمن يتذكر وهو ما يزال في الأسبوع الأول بعد الولادة إذا هو سمع صوت أبيه إنها أمور مذهلة، بل آيات بالغات أصبحت الآن واضحة جلية لا ريب فيها وغدت الآن معروفة مألوفة.

كان الجنين في نظر الطب: كائناً حياً في أدنى مستويات الحياة وكانت كتب الطب تصف حياته بأنها تماثل حياة حبة الفاصولياء في أصيص من التراب والماء، فهو قبضة حجيرات تنمو وتتكاثر كالبقول، أما سلوكه وحركاته، فلم تكن في نظر الأطباء إلا ردود أفعال ومنعكسات على المؤثرات التي تصل إليه وهو في بطن أمه، وهذا يعني أنه في نظر الطب التقليدي لا يستقل عن أمه ولا ينفرد بذاته ولا يعمل دماغه عملاً خاصاً به أو لحسابه الخاص.

* * *

والآن تبدل كل شيء في نظر الطب والأطباء، تبدل إلى درجة أن الطبيب الباحث المعاصر (توماس فيرني) طبيب الأمراض العصبية والنفسية في أمريكا يقول: «عندما يولد المولود ويأتي إلى الحياة، لا يبدأ بالتعرف إلى عالم كان يجهله، بل هو يتابع خبراته (رغم قلتها) التي تكونت لديه وامتلكها وهو في بطن أمه»[1].

* * *

الرباط

وفي خطوات تالية اعتبرها الباحثون كشفاً باهراً لا نظير له أو لنقل آية من آيات الله تعالى تنطق بعظمة الخالق وتكشف عن دقة خلقه وجماله.

فقد أثبتت المشاهدات أن ثمة تواصلاً نفسياً مستمراً وزاخماً، في العواطف والانفعالات بين الأم والجنين، أطلقوا عليه اسم الرباط الأول قبل الولادة. واسم الرباط الثاني للذي يتم بعد الولادة[2] فلنعمد إلى الشرح والتحليل.

* * *

من الأمور المسلمة اليوم في علم النفس أن الحياة النفسية لا تعمل في فراغ

---

(١) الحياة الخفية للجنين قبل الولادة. توماس فيرني وجون كيللي. المقدمة.

(٢) Paris Match. Etude documentaire مجلة. 1982 Fev. ص ٧.

بـل تعمل مـرتبـطة بشـروط جسـديـة. فمـا من شيء نفسي في الإنسـان إلا ويتعلق بالعضوية والجسد.

إننا حتى اليوم نجهل كيفية ارتباط العامل النفسي بالجسدي كما نجهـل تعليله، ولكننا متأكدون من هذا الارتباط وبوسعنا دوماً ملاحظته. وتطبيقاً لهذا فنحن نرى أن تكوين الأم يتعرض منذ الحمل لنوعين من التطورات:

١ ــ تـطور جسدي (فيـزيولـوجي وتشريحي) وعـاطفي تعاني منـه الأم بفعل الحمل.

٢ ــ تطور آخر جسدي (فيزيولوجي وتشريحي) وعاطفي تعاني منه الأم ناجم عن تكوين كائن جديد في داخل جسدها، أخذ يستقر في رحمها.

ومن البـديهي أن تكون استجـابـات الأمهـات لهـذين النـوعين من التـطورات مختلفة من حامل إلى أخرى، ومرد ذلك إلى مدى ونوعيـة «تقبُلها النفسي للحمـل» (أو عدم تقبلها).

ويؤثر في هذين الاتجاهين كون الأم الحامل أماً شرعية حملت برغبـة صادقـة واطمئنان أم بغير الرغبة والاطمئنان، وطبيعي أن تكون هنـاك فروق بين حمـل تحلُم به الأم الحامل وتحيا بأفراحه في الغدو والرواح وأمام زوجها والناس وحمـلٍ تتوارى فيـه من الناس وتخشى انكشـاف أمرهـا وتسعى إلى التكتم أو التخلص من الحمـل وهي تشعر بالإثم وتنأى عن الفضيحة.

الربـاط الأول

● حين ترغب الأم بالحمل وتتولـع بما تخلفـه، وتحلم بمجيئه، تـرسل إليـه (وهو في بطنهـا) موجـات بل دفعـات من العواطف المكثفـة قوامهـا الفرح والتقبـل المستمر وتغمره بفيض زاخر من الرضى والحنان فيستيقظ شعوره مبكـراً ويبادل أمـه الابتهاج متوافقاً معها وكـأنه يقـدم مودتـه وشكره على حسن لقـائها، ويغتني شعـوره «بالسكينة» ويعبر عن امتنانه بحركات لطيفة ساحرة لا حدّ لعـذوبتها على قلب أمـه. (فسبحان الله!!).

● وحين لا ترغب الحامل بالحمل ويتم حملها وهي مكرهة، فإنها تقطع التواصل مع الجنين فتراه يحيا حياة منفصلة عن أمه، فيها الوحشة والانكماش ويقع في حيرة من أمره ويسلك سلوك «البلبلة» واضطراب التوازن (وكل هذا يُشاهد بالتنظير).

● تشير المشاهدات إلى أن الجنين يصبر على هذه اللامبالاة أول الأمر ثم يبدأ يتجه نحو المشاكسة ويعبر عن ذلك بركلات «يرسلها بقدميه وكأنها تعبر عن الاحتجاج». وفي بعض الأحوال يصبح «سقطاً» أو ما يسمى لدى العامة «طُرحاً».

● وإذا لم يسقط فإنه يحشد الإحساس بالمرارة في نفسه فتتحول إلى عدوان ويعاني من الاضطراب مع نفسه ومع أمه، ويتوجه مجبراً نحو الانحراف وعدم تقبل ذاته ويغدو متهيئاً (للعناد والرفض) ثم العدوان وسيظهران لديه بعد الولادة. يذكر الباحثان (فيرني وكيللي) أن[1] «كريستينا» رفضت بعد ولادتها تناول الثدي من أمها، وأصرت على هذا الرفض أياماً، ظنوها أنها ستموت، ولكن الطفلة قبلت أن ترضع من أم مرضع أخرى، ثم أغمضت عيناها وأعيدت معصوبة العينين إلى أمها فرفضت الرضاع منها مجدداً وأجرى الطبيب النفسي حواراً مع الأم تبين بعد ذلك أن الأم ما كانت أصلاً ترغب بهذا الحمل فقد حملت بابنتها على كره ومقت.

● تابع الباحثون العلماء سلوك الرفض عند الأجنة في حالات انعدام الرباط فتمكنوا من اكتشاف جذور جديدة للانحراف النفسي والمَرضي والاجتماعي وأخذوا يُعزون إلى الحياة الجنينة تكون الميول والاتجاه صوب الوسواس والذهان والجنوح والاكتئاب وعشرات الظواهر المنحرفة.

واليوم تجري دراسات هدفها وَهَمُها إعادة النظر إلى هذه الانحرافات بالاستناد إلى ما يجري في الحياة الجنينية.

عرف الباحثون ولاحظوا أن دورة النوم عند الأجنة مرتبطة بدورة النوم عند الأمهات، شاهدوا أن الأمهات التي تعودت أن تسهر طويلاً أثناء الحمل تخلف أبناء

---

(١) المرجع السابق، ص ١١.

وبنات تميل إلى السهر ولاحظوا أن نؤومات الضحى من البنات قد وُلدن من أمهات كن نؤومات الضحى!

● طالعت أمهات كثيرة هذه الحقائق، وهن في أثناء الحمل، فكنَّ يوثقن علاقاتهن بالأجنة، يغنّين لهم ويُسمعْنَهم آيات من القرآن الكريم، وقد جاءنا أن سيدةً حاملاً في دمشق كانت تُسمع الجنين في بطنها ما تقرؤه وما تحفظه من السور والآيات.

وقد تمكن طفل لإحدى هذه الأمهات الفاضلات أن يختم القرآن ويحفظه وهو قبل السنة الخامسة من عمره. (فيا سبحان الله)!...

● وقد لوحظ أن الطفل الذي كانت أمه تتصل به بالغناء والقراءة والتحدث معه (أجلْ بالتحدث معه ولا غرابة) يُولد بنفسية منفتحة بادية النشاط ظاهرة «المبادهة» وتتجلى فيه مظاهر النمو والتفتح السريع ويبكر في المشي والكلام.

«لقد جلس طفل مولود وله سبعة أيام فقط، جلس متكئاً على سند، وعلل الباحثون ذلك بأن عموده الفقري كان قد نما ونضج بفضل الوعي الذي مارسه وهو في بطن أمه فغدا في حالة أفضل بسبب الاسترخاء والارتياح وعدم الاضطراب»[1] (يا سبحان الخالق!).

● وإذا كانت الأم الحامل سعيدة بحملها هانئة فيه كونت مع الجنين «وحدة متماسكة» أو «رباطاً قوياً» سرعان ما ينجم عنه درع وقائية تقف سداً دون أي تأثير نفسي ناتج عن تعاسة الأم أو تعرضها لشقاء اجتماعي خارج الحمل.

يقول الطبيب «توماس فيرني» إنه يصعب على الإنسان أن يتصور حياة أحفل بالشقاء والتعاسة من حياة (ماريا) التي أتت إلي وهي حامل، فقد هجرها زوجها وهي في الشهر الثاني من الحمل، وكانت قد انقطعت عن العمل وهي في الشهر الأول ولما دخلت في الشهر السادس ظهرت دملة سرطانية خبيثة قرب الرحم عندها، استوجبت إجراء عملية جراحية لها لإزالتها، يقول الطبيب لما نصحها

(١) انظر سيكولوجية الأمومة، المؤلف عدنان السبيعي، ص ١٠.

بضرورة إجراء العملية: امتنعت الأم عن إجراءها خشية أن يكون الثمن إسقاط الجنين، لقد كانت هذه الأم تدرك أن الحمل هو أقصى أمنية حلوة لديها، وكانت تفضل أن تضحي بنفسها هي، إذا كان الأمر يتطلب التضحية، وليسلم الجنين، فإنه آخر فرحة لها في الحمل بعد أن غدتْ في الأربعين من عمرها وليس لها أمل في حمل آخر، وأخيراً تم الحمل واكتمل وولدت الأم ابنتها (أندريا) يقول عنها الطبيب: «إنني لم أشهد ولم أر في حياتي وجهاً ينضح بالسعادة وتتجلى على قسماته ظاهرات الصحة والراحة مثل ما شهدته ورأيته في وجه (أندريا) وذلك على الرغم من بؤس أمها وشقائها وضيق ذات يدها، وفقرها المدقع، وتعرضها للهوان والهجر والمرض الخبيث، لقد عاشت هذه الطفلة حياتها الجنينية في أحشاء أم قد تجمّع ضدها أعداء شرسون هم: الفقر والهم والغم والحصر والمرض الجسدي، ثم حين ولدت البنت جاءت متلفعةً بالنضارة والصحة والسكينة. فسبحانك يا رب!.

موجز القول: أن الجنين الذي يحيا في رباط سعيد من العواطف المفعمة بالرضى والمترعة بالسكينة، يستجيب معترفاً بإحسان أمه ويغدو سلوكه سعيداً ونفسيته رائقة ولسان حاله يقول: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان».

آيات باهرة اكتشفها الأطباء حول الولادة مجدداً

من بين الآيات البديعة التي اكتشفها الطب الحديث أن وجود إنسان قريب ودود إلى جانب الحامل أثناء الولادة يلعب دوراً رئيسياً في دعم نفسيتها وبالتالي في تيسير الولادة وانعدام المشكلات الخطيرة التي تلحق بالمولود، وخاصة المشكلات المتعلقة بنقصان الأوكسجين.

لقد أثبت العلماء أن وجود ذلك القريب المؤنس يقلل من احتمال إفراز المواد الكيماوية مثل (الكاتيكولامين) الذي ينتج عن (الادرينالين)، فهذا الهرمون يفرزه جسم الأم إذا بدأ المخاض عندها وهي في حالة ذعر أو غضب.

وفيما عدا ذلك فإن الادرينالين يتضاءل احتمال إفرازه عند الولادة إذا كانت الأم مرتاحة ومطمئنة، وفي هذه الحالة فإن عضلات بطن الأم وأوعيتها الدموية

وأحشاءها تنشط فيزداد صبيب الدم مغذياً الرحم والجنين في آن واحد، فتنتعش حالة الجنين في أثناء المخاض وتتضاءل عقابيل نقص الأوكسجين. يرى الأطباء أن هذا النقص إذا لم يؤدِ إلى موت الجنين فإنه سوف يخلف فيه نتائج خطيرة قد تجعل حياته مفعمة بالمآسي مع حياة أمه حيث يصاب المولود (إذا لم يمت) بالتأخر العقلي فيغدو من المعوقين عقلياً، أو قد يصاب بالاضطراب المزاجي أو الانفعالي ويتعرض عندها لانحرافات نفسية لا حدّ لها قد تدوم طيلة حياته.

الرباط الثاني

ثم تأتي الولادة، ويقبل المولود على الحياة. أرأيت مواكب الربيع والعطر والزهر، إنه المولود أحلى وأروع! وتمتزج آلام الوضع بأفراح جديدة تملأ حياة الأم، لقد كان الرباط الأول مفعماً بالعذوبة الغامضة، أما الآن فإن كل لحظة تمر تجعل حياة الأم أكثر ثراءً وأوضح شعوراً وأحفل بالهناء.

حقاً إن في الوجود أشياء ثمينة! مشاعر تنبعث من الأعماق، هو ذا المولود يتفتح على الحياة قطعة من جسد الأم تنتقل بين الأيدي وتتلفع بالأمنيات «حمداً لك يا ربّ» تقولها الأم وهي تنظر إليه وتغمض عينيها وتتنهد.. إن ما فيه يبعث على الأمل؛ عيناه الساحرتان ونظراته العميقة وكأنها آتية من عالم الغيب، ثم ما أحلاه حين يكون هادئاً وديعاً في حجرها ساعة الرضاع! وما أروعها من ساعة.. يطيل النظر إلى أمه وتتأمل هي تطلعه إليها ونهمه في مص اللبن وبلعه ولكأنه يُحِسُّ أنه يأكلها...

تباركت يا رب وما أعظم وأروع الرضاعة[1] وما أحلاها!!.

---

(١) حول الرضاع الأول: إن أول حليب يرضعه الوليد ليس كالحليب الذي نعرفه نحن الكبار. إنه حليب تمهيدي، أو لنقل إنه وجبة مخففة وملطفة ومناسبة تماماً للجهاز الهضمي لطفلٍ يقبل على الغذاء، بطريق الفم لأول مرة، هذه بنية الرضاع، أما وظيفته النفسية فإنها أجلّ من أن توصف... ذلك أن المولود لا يتناول حليباً فحسب بل يتناول حليب العطف الإنساني. =

ويكبر الطفل وينمو بسرعة[1] فتنمو أفراحه وتتفتح همته للحركة وفعالياته المفرحة فتتكون في أعماق نفسه ثقته بأنه محبوب وأن أمه تدعم أفراحه وتؤيد نفسيته فتتعاظم سكينته التي تكونت لديه وهو جنين، فيتخذ مواقف متفتحة مع كل الآخرين ويستعذب الوجود معهم ويبادلهم اللعب.

أول دروس البطولة: هذه الأفراح التي تحتشد في نفسية الصغير، تنتقل إلى العالم الخارجي وأفراده، فتبدو له الحياة عذبة ممتعة هي أروع من الورود والأزاهير تحيط بالنوافذ الأنيقة، وهكذا نجده متفتح القدرات يستعذب النشاط فيتعلم كل يوم شيئاً جديداً بل كل ساعة. وتصبح مواقفه مماثلة لمواقف أبطال الرياضة، وكما أن هؤلاء الرجال يستعذبون المشقة ويبتهجون مع بذل الجهد ويثابرون على تدريباتهم الشاقة ساعين وراء نصر جديد يتلوه نصر وظفر، في كل يوم...

فإن في وسعنا أن نرى في حياة المولود سلوكاً بل أعمالاً لا يقدرها عامة الناس ولكنها تمتلىء بالبطولة ونحن لا نبالغ إذ نقول إنها البطولة الحقيقة. وهذا هو الدرس العظيم، بل الآية الرائعة التي تبثها عناية الله في روح الصغار وتدعمها

= وآية جديدة من آيات الله تعالى كشف عنها العلم الحديث ألا وهي أن الوليد الذي يتاح له أن تحتضنه أمه والذي يبدأ يمتص الثدي فإن مسائل كثيرة وخطيرة تقلق بال الأطباء حول لحظات الولادة تجد حلًها في الرضعات الأولى.

- أولى هذه المسائل تظهر في هيئة نزيف بعد الولادة.
- وثانيها تقلص الرحم ورجوعه إلى حجمه الطبيعي.
- وثالثها ختام عملية الولادة بانفصال المشيمة.

وهذه المسائل الثلاث يمكن تجنبها ويتيسر حلُّها في معظم الحالات بعملية طبيعية بسيطة للغاية إنها عملية لا تخرج عن تقديم الثدي، لوليدها الرضيع. عندئذٍ وبمجرد أن يبدأ المص يتراجع النزيف ويعود الرحم إلى وضعه الطبيعي في أقل وقت ممكن، وتسقطُ المشيمة آلياً دون مجهود. سبحانك يا رب! أرأيت أيها الصديق القارىء كم يختلف الرضاع من الثدي عن الرضاع بواسطة الزجاجة؟. (راجع: من أسرار الحياة والكون. د عبد المحسن صالح ص ٢٠١ ـ ٢٠٣).

(١) من أسرار الحياة والكون. د عبد المحسن صالح ص ٢٠١.

الأمهات، إنها آية يتفتح فيها شعور الطفل على اكتشاف البطولة وممارستها، وهكذا فإن الرباط الأول يصنع السكينة الثابتة والاستقرار المكين.

أما الرباط الثاني فيصنع السكينة الديناميكية المتحركة والاستقرار الدافق المتحرك، وحين تضاف السكينة الساكنة إلى السكينة الدافقة تتكون منها نفسية المولود تلك النفسية التي تجعل الطفل يعتز بنفسه ويتملكها، فيعبر بها عن أفراحه وشجاعته ورغبته المستمرة بالتجاوز والتغلب على المشكلات المتعلقة بحياته (بالغذاء والنوم واللعب)، وواضح أن الطفل الذي يملك نفسه وذاته يختلف اختلافاً كلياً عن طفل تملكه العناصر الأخرى الغريبة عن ذاته، فيعيش مشوش الذات تحركه مؤثرات العالم الخارجي وتجده محتاجاً إلى من يشجعه دوماً ومن يبذل له العون، فلا يتحرك إلا إذا حركه محرك خارجي ولا يُسر سروراً بهيجاً إلا إذا قُدم له السرور على صفحة من ذهب، وفي حين أن الطفل الأول يحمل نفساً مطمئنة واثقة الكيان مستقلة وقدراتها، جاهزة القدرات؛ فإننا نجد الطفل الثاني يحيا حياة الانتظار والتواكل والتردُّد والاعتماد على الآخرين، هذا إذا لم تنبت فيه أسباب الشك وتترعرع مظاهر الريبة والتحسُّب والشك وقلة الارتياح إلى الوجود.

وتبارك الله أحسن الخالقين:

فإن عظمة الأم تقوم على مساعدة الطفل كي يكوّن ذاتية قوية له، واستعداداً دائماً لتقبُّل الحياة وتجاوزها (بشجاعة وبسالة)، والفرح بالجهود والوجود والممارسة اليومية لأن يُحِب ويُحَب ويعبد الله ويفرح بأفضاله عليه.

الفصل الخامس

النوم

النـــوْم

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[1].

في النوم آيات كثيرة لا آية واحدة

كلنا يعرف النوم ونمارسه في كل يوم، وفي موضوع النوم مسائل كثيرة يثيرها هذا السلوك. وقد حاول الإنسان منذ القديم أن يدرك النوم ويعرف حقيقته لكنه يظل لغزاً محيراً بل مجموعة ألغاز هي آيات بينات تنطق بعظمة الخالق وفائق تدبيره.

الآية الأولى: سؤال نسأله: كيف يتسرب إلينا النوم فيأخذنا ويستولي علينا، كيف يأتينا أو كيف نأتي نحن إليه، وكيف يغيب وعينا فيه، وما هي آلية هذا الغياب؟.

الآية الثانية: ما طبيعة النوم، ما الذي يجري في الإنسان حتى ينام ويَنسلخ فيه من العالم ومن وعيه هذا العالم بالذات، وفيه يتراءى لنا أننا ولجنا عالماً ثانياً يستقل عن العالم القائم على الوعي ويتصل به في آنٍ واحد. فكيف يتم الأمر؟؟..

الآية الثالثة: وبعد اليقظة من النوم نعود إلى العالم الذي نحيا فيه مستعيدين وعينا، ونتابع أعمالنا واهتماماتنا ونصل في هذه العودة ما كان قد انقطع، وكأن شيئاً لم ينقطع. إن الإنسان يحيا في النوم قرابة نصف عمره أو على الأقل ثلث عمره (فمن بلغ الستين من العمر يكون قد نام فترة لا تقل عن ٢٠ سنة).

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٣.

الآية الرابعة: وتدور على مسرح النوم أحلام نحلم بها ونراها، فنشعر أننا نحيا في داخلها ولهذه الأحلام دلالات وضعت لها تفسيرات مختلفة، أسهم فيها الفكر الإسلامي وتألق، وعقد لها علماء النفس المعاصرون بحوثاً مستفيضة ودراسات جعلت الإنسان يقف على نوعين من الأحلام (أحلام المنام) و (أحلام اليقظة).

الآية الخامسة: وقد يمتزج سلوك النوم مع سلوك اليقظة فيقوم الإنسان بأنواع من النوم تختلف عن النوم المعروف والذي يتسم بالاضطجاع، فتتكون ضروب من النوم المتحرك أطلق عليها العلماء ظاهرة السير في النوم (السرنمة).

الآية السادسة: وعرف الناس منذ أواسط القرن الماضي وحتى الآن تنويماً مصطنعاً ينوِّم فيه إنسان إنساناً آخر يؤثر فيه وينقل إليه أوامره فيستجيب لها، وقد أطلق على هذا النوم: التنويم المغناطيسي.

النَّوْم

قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[1].

إن البشر ينامون، والنوم ضروري لهم ابتغاء الراحة وتخفُّفاً من التعب. وبواسطة النوم يتحقق للإنسان الاسترخاء، وفي الاسترخاء راحة للجسم وغيبوبة للشعور. ونستفيد من الآية السالفة أن حياة الإنسان مؤلفة من يقظة (يبتغي فيها المرء الرزق ويطرق باب الله ويسعى وراء فضله) ومن نوم (يريحه من عناء التعب وتوتر الشعور ومداومة الوعي). وخلافاً لحياة البشر فإن الله تعالى لا ينام ولا يحتاج إلى النوم. ورد في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام

(١) سورة يونس: الآية ٦٧.

ولا ينبغي لـه أن ينام . . . حجـابه النـور والنـار لـو كشفـه لأحـرقت سبحـات وجهـه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل ينـام ربك قـال: اتقوا الله فناداه عزّ وجل: يا مـوسى سألـوك هل ينـام ربك؟ . . خـذ زجاجتين في يـديك فقم الليلة، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلثه نعس موسى فوقع لـركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا فقال يا موسى: لو كنتُ أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكتْ كما هلكت الزجاجتان في يـديك، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسي:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[1].

ومن هذه الآية نستفيـد أن الله حيٌّ قيوم (يحيـا باستمـرار)، (وبغير انقـطاع). ولا يعتريه نقص ولا غفلة، ولا يذهل عن خلقه لحظة بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، ولا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية.

* * *

والنـوم عنـد البشـر ضـرورة من ضـرورات الحيـاة[2] يحقق لهم الـراحـة في أبـدانهم ويعينهم على الغيبـوبـة في نفسيـاتهم. والإنسـان المتعب حين يستيقظ من نـومه يُحس وكـأن الحياة ارتـدَّتْ إليه بعـد أن أنهكه العمـل أو أثقله التفكير ونـاء به الانتباه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٢) يقول المختصون: إننا ما نزال نجهل علمياً ضرورة النـوم (وهذا يؤكـد أنه آيـة من آيات الله عز وجل وليس مجرد واقعة، وكل ما نعرفه أنه عادة راسخة أشبه بالغريزة، لقد اعتدنا أن ننام أو لنقل: إننا مفطورون على النوم منذ الولادة ونعده ضرورياً لنا، ومن لا ينام يشعر أنه يقاوم الطبيعة ويتعـرض لاضطراب وظـائفه الحيـوية والعقليـة ويقترب من الهـلاك، ولا شيء يقوم مقام النوم أو ينوب عنه بديلاً. (حتى الاسترخاء العام والراحـة المطلقـة). الجمعية الـوطنية واشنطن ١٩٨٨.

العمل يتطلب بذل الجهد وتصريف الطاقة، والتفكير لا يتم بغير جهد بدليل أننا نعجز عن التفكير حين نكون متعبين (أو تتناقص طاقتنا)، وإن كلاً من العمل والتفكير يتطلب حضور الانتباه. والانتباه عملية شاقة؛ إنه توتُّر قوامه جمع الشعور وتركيزه على موضوع معين. وفي كل انتباه يقظة ما، تعين على الإدراك والفهم. إن الأم التي تنتبه إلى طفلها تسهر على راحته، كما أن الحاكم العادل اليقظ يولي المواطنين ما يحتاجونه من رعاية وعناية (فيسهر على راحتهم).

إن الانتباه صورة من صور اليقظة الروحية التي يستطيع الإنسان معها أن يخرج من سباته الذاتي لكي يهتم بالآخرين ويعمل مع الآخرين، ومهما كنا يقظين وأقوياء، فإننا بسبب ما نبذله من جهد نشعر بالوهن وانحطاط القدرة على المثابرة في حياة اليقظة فنخلد إلى النعاس ونستسلم إلى النوم.

درجات النوم

أدنى درجات النوم النُعاس يشعر فيه المرء بانحطاط الطاقة وتعاظم حاجته إلى الراحة، إنه باب النوم وقد يتخلله التثاؤب، والتثاؤب ليس استسلاماً للنوم بقدر ما هو رغبة الإنسان بمدافعة النوم والإبقاء على اليقظة في آنٍ واحد. إن طالباً يتثاءب في الصف هو في الحق يتخذ من التثاؤب وسيلة لعدم الاستسلام إلى الكرى. والذي أخذه النوم من الطلاب لا يتثاءب، بل يكون النوم قد استولى عليه فنام. فالتثاؤب عمل دفاعي ولا يُدان إلاَّ من ناحية واحدة، وهي أنه يصبح مثيراً للعدوى أو سبباً في انتشار النعاس لدى الآخرين. يقول المعري:

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثؤباء

وفي درجة أعمق من النعاس يبدو لنا الوسن؛ وهو النوم في أوله.

وبعد الوسن يأتي السُهاد وهو القليل من النوم. ومن بعده يأتي الكرى. ثم السبات، ثم الرقاد. ومن بعده يكون الغطيط الذي يتميز بالنخير (وهو الصوت الذي يخرج من أنف النائم ويسمى عند العامة بالشخير).

كيف نستغرق في النوم

حاول بعض العلماء أن يتتبعوا وضعهم في انتقالهم من اليقظة إلى النوم وأخذوا يراقبون مشاعرهم، فامتنع عليهم أن يناموا ما داموا في هذه الحالة، ولما يئسوا من إمكانية ملاحظة التحول (أو التدرج) إلى النوم ناموا ولكنهم حين ناموا لم يكونوا قد عرفوا شيئاً سوى أنهم غابوا عن الانتباه إلى أنفسهم أو غُيبوا عن ملاحظة مشاعرهم (فسبحان الله!).

ومعروف أن الطفل أسرع من الراشد في الاستسلام إلى النوم، وهناك أطفال ينامون بُعيْد وضعهم في السرير.

وعلى وجه العموم فإن طفلاً هادئاً آمناً ينام بسهولة وبصورة أيسر من طفل متعب خامل أو قلق أو جائع أو فيه توعك من برد أو مغص وتتدخل في هذه الناحية عناصر كثيرة مثل توفر الصحة والوراثة والاعتياد والشعور بالأمان النفسي أو عدم توفرها.

والملحوظ أن الأطفال ينامون بسهولة إذا جُعلوا أو وضعوا في السرير قرب أمهاتهم. وهناك أمهات تعلم كيف يسارع النوم إلى أطفالها وذلك بمجرد مسك كفه أو طرف أصابعه فينام حالما تضعه في السرير.

ويفيدها في ذلك جعل الطفل في غرفة قليلة الضياء والصوت. ويكتسب كل إنسان هيئة خاصة به في رقاده يعتادها حتى ليضطرب نومه إذا غيَّرها، فمنا من ينام على ظهره، ومنا من ينام على جنبه الأيمن أو الأيسر ومنا من ينام متمدداً، ومن ينام منطوياً على نفسه.

وقد استدل العالم النفسي آدلر من ملاحظة هيئة النائم على الطابع المميز لشخصه وكان يدعي أن الشخص السوي المرتاح إلى تفوقه، ينام ممدد الجسم ولا يتقلب، أما المريض الذي تكتنفه المخاوف ويحس بالنقص أو الدونية فإنه يثني جسمه.

عمل الحواس في النوم

تتعطل وظائف الحس إجمالاً أثناء النوم فيتوقف البصر بإغماض الجفون، وحتى لو لم تُغمض العينان فإن الرؤية تتوقف. ومن المعروف أن بعض الناس ينامون وجفونهم مفتوحة ولكنهم حينما يستغرقون بالنوم يفقدون الرؤية.

أما الحاسة التي تظل وظيفتها تعمل رغم النوم فهي السمع. وقد حدَّد العلماء استمرار السمع خلال النوم بمقدار الثلثين (ولا مجال لبيان كيفية هذا التحديد). وقد قيل إن الإنسان في اليقظة كائن بصري وهو في النوم كائن سمعي[1]. وإذا كان الإنسان في اليقظة يظل مرتبطاً بما حوله من الناس في عمليات الأخذ والعطاء فإن النوم يعزل الفرد ويسوقه ليحيا في عالمه الفردي الخاص.

هذا ويختلف الناس في حاجتهم إلى النوم حسب السن والمهنة والاعتياد.

فتبعاً للسن نجد المولود يحتاج إلى ٢١ ساعة في كل نهار وليلة وحين يصبح المولود في الشهر الثالث يهبط مقدار ساعات النوم لديه إلى ١٨ وحين يصبح المولود في الشهر الثاني عشر يهبط مقدار ساعات النوم لديه إلى ١٣ والطفل الذي

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

فما أعظم القرآن وما أحلى الإعجاز في هذه الآية إذ ورد فيه ذكر النوم والسماع في سياق لفظي واحد. ولقد أشار كتاب الله تعالى إلى هذه الناحية في سورة الكهف في أثناء الحديث عن أصحاب الكهف. قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا...﴾. أي عطلنا سمعهم خلال النوم. وهذه الإشارة تؤكد بشكل صريح العلاقة الوثيقة بين السمع والنوم، وتُعد هذه الإشارة من آيات الله وإعجاز كتابه الكريم، لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يُخلد أصحاب الكهف إلى النوم سنوات طويلة، وتحقيقاً لاستقرار هذا النوم الطويل ودفعاً لاحتمال اضطراب نومهم، فقد أوقف الله تعالى السمع عن أصحاب الكهف.

ومن العجيب أننا في القرن العشرين الحالي نكتشف عملياً علاقة النوم بحاسة السمع. فسبحان الله.

صار عمره ١٠ سنوات يحتاج إلى ١٠ ساعات نوم، والطفل الذي صار عمره ١٧ سنة يحتاج إلى ٨ ساعات ونصف الساعة.

أما الشيوخ المسنون فتهبط قدرتهم على النوم إلى ٥ ساعات وذلك على الرغم من أن المسنين يلزمهم النوم أكثر مما يلزمهم الغذاء.

وهذه الأرقام استخلصها العلماء نتيجة دراسة أعداد كبيرة من الأفراد أُخذ متوسطها. وبالطبع فهناك فروق فردية تجعل كل إنسان يمارس عدداً من ساعات النوم يختلف عما لدى الآخرين. وعلى وجه العموم، فإن الأفراد الذين يتمتعون بصحة متوازنة ويمارسون الرياضة البدنية بشكل معتدل ينامون نوماً هادئاً وبمقدار يقل عن الذين يعانون من اضطرابات نفسية أو لا يمارسون الرياضة ومن شأن اضطراب التكيف أو التوافق أن يقلل من ساعات النوم وقد يزيد فيها. والمعروف أن الأفراد سيِّئي التكيف ينامون ساعات كثيرة إذ يحققون في أحلامهم ومنامهم الكثير مما فشلوا في تحقيقه في عالم اليقظة. ومن الناس من تكون حياتهم نوماً متواصلاً أو شبه متواصل.

ومعروف أيضاً أن التبكير في النوم أدعى إلى مزيد من التوازن الصحي فذلك أفضل من السهر وأن أفضل ساعات النوم التي (يجد فيها النائم راحة) يقع في أول النوم. وفي ساعات الصباح يتعرض النوم إلى اضطراب عند معظم الناس فتكثر الأحلام التي تشد الإنسان كي يظل رهين الفراش وكثيراً ما تكون الأحلام في آخر الليل شبيهة بالسلوك الواعي فتجعله يظن أنه في اليقظة في حين أنه في حالة النوم.

أثر الحالة النفسية

يقول العالم العربي[1] د. عبد المحسن صالح في كتابه «من أسرار الحياة والكون»: ينام الطفل نوماً عميقاً ولفترات أطول معتمداً على حماية أبويه، وهذا يمده بطاقة دافعة لينمو ويشتد ويقف على قدميه، وكلما وقف وصمد، نقص نومه العميق وحل محله نوم ضعيف، وهذه الظاهرة المثيرة تبدو لنا أوضح في عالم

(١) من أسرار الحياة والكون، الكتاب العربي الخامس عشر ١٩٨٧، الطبعة الأولى ص ٢١٢.

الحيوان، فالحيوانات التي تصيد (كالإنسان والكلب والنمر والقط. . . إلخ) تتمتع بقسط أوفر من النوم العميق يزيد على نوم ضحاياها، بمقدار الضعف أو ثلاثة أضعاف، كأن الخوف من الخطر لا يسمح بفترة تطول من النوم العميق إلاَّ خطفاً، ثم إن النجاة من الخطر حين يظهر تجعل النوم ضعيفاً، فإذا أحست الدجاجة بحركة ثعبان هجرت إغفاءَها وأخذت تحوِّل نظرها يمنة ويسرة، وهكذا فإن الكائنات الحية إما آكلة أو مأكولة، ومن لا يتخذ حذره، فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه.

تجارب على الدماغ

تؤكد الدراسات التجريبية أن أجسامنا عند اليقظة غير أجسامنا عند الإغفاءة البسيطة، وغيرها في النوم الخفيف والعميق. وهناك تجارب تشير إلى أن لليقظة في أمخاخنا مراكز، وللنوم الخفيف مراكز أخرى وللعميق مراكز ثالثة. ولكي تسري الدورة اليومية بين النوم واليقظة كان لا بد من وجود تناسق بين هذه المراكز من جهة والجسم كله من جهة ثانية. هذا وإن التنسيق المذكور معقد غاية التعقيد، وقد وُضعت له فرضيات عدة وكلها تحاول أن تصل إلى تفسيره، ولكل فرضية نواقصها، ومع ذلك فإن معلوماتنا اليوم أدق بكثير من معلوماتنا منذ عشرة أعوام أو عشرين. وهكذا فإن ظاهرة النوم تعتمد على أنشطة عصبية وكيميائية وفيزيولوجية، ولكي يسري كل شيء على ما يرام، وتجري الأمور في أجسامنا بنظام كان لا بد من انسجام وتنسيق بديع بين تلك الأنشطة يشبه انسجام فرقة موسيقية يقودها مايسترو (سبحان الله) وكما تعزف الفرقة الموسيقية ألحانها، فإن أجسامنا تعزف ألحان النوم وألحاناً أخرى لليقظة على صورة إيقاعات متفاوتة وكلها محكمة، ويكون من هذه الإيقاعات نشاط منظم ومزاج معتدل وأحلام طيبة بعيدة عن الأرق والتوتر وما إليهما.

الدماغ لا ينام[1]

إن أدمغتنا أثناء النوم لا تنام بالمعنى المفهوم، وإنما هي تغير وتبدل موجات

(١) المصدر نفسه: ص ٢١٤ ــ ٢١٦.

مراكزها، فبعد أن كانت تذيع مثلاً على موجة قصيرة ذات ترددات عالية، نراها وكأنها تحوِّلها ـ حين الدخول إلى النوم ـ إلى موجات أخرى أقل تردداً وكلما تعمقنا في النوم ظهرت موجات مسيطرة وانخفضت أخرى وخفتت، ومع ذلك فلكل منطقة في الدماغ موجاتها التي لا تشاركها فيها منطقة أخرى. لكن ذلك موضوع طويل ولا مجال للاسترسال فيه.

وهناك دراسات أخرى تعتمد على جوانب ثانية. وتطرح هذه الجوانب المسألة بطريقة خاصة فتقول: لماذا نحس في فترة معينة أن أجسامنا قد وهنت عند النعاس وأن الكرى بدأ يتسرب إلى عيوننا، ما الذي يحدث بالضبط؟.

يقول العلماء: إن النوم كيمياء وكهرباء، والكهرباء تؤثر على الكيمياء والكيمياء تؤثر على الكهرباء، إن الموجات الكهرومغناطيسية التي تنبعث من رؤوسنا أثناء النوم تختلف عن تلك التي تنبعث أثناء اليقظة، وسبب ذلك يرجع إلى تأثيرات كيميائية على مراكز الأنشطة في أدمغتنا، وهناك بروتينات خاصة قد عزلت بالفعل من دمنا على هيئة خمائر أو أنزيمات، وإن هذه الأنزيمات تؤكسد مواد كيميائية محددة اسمها (المجموعة الأمينية) فيؤدي ذلك إلى انتقالنا من النوم السطحي إلى نوم عميق. والذي يدعم هذه الحقيقة العجيبة أن الجسم إذا حقن بمادة كيميائية تتداخل مع نشاط هذه الأنزيمات أو المفاتيح المسيطرة على خلايانا العصبية و «تغلق» فيها مواقعها النشطة والحساسة، فإن النوم العميق جنباً إلى جنب مع النوم السطحي أو الخفيف.

ويقال أن هناك مركبين أساسيين يتحكمان في النوم الخفيف والعميق أحدهما اسمه «سيروتونين» ومكلف بالنوم الخفيف والآخر هورمون «النورادرينالين» مسؤول عن النوم العميق، ومن الممكن طبعاً، من خلال أدوية خاصة غير ضارة، أن نمحو أو نزيل أحدهما فيكون النوم الخفيف أو النوم العميق، أو قد نمحو الاثنين معاً فيظل الكائن الحي مستيقظاً، ولكل واحد منها مركز يشتغل فيه ويتلاعب بنشاطه البيوكيميائي.

والخلاصة: إن البحث في أسرار النوم عند الإنسان والحيوان لا يتوقف،

فمعرفة ما يمكن معرفته عن ذلك السر الإلهي العظيم تفتح لنا أبواباً واسعة للتحكم في ظاهرة هامة تستهلك ثلث أعمارنا فنستسلم لها دون أن ندري عنها شيئاً. ولو توصلنا إليها لأمكننا أن نسيطر عليها ونستعيد من نومنا إلى أقصى الدرجات، فنتمكن من اليقظة بغير حدود، أو النوم بغير نهاية ما دمنا قد عرفنا أسرار هذه الحدود.

والحق أن في أدمغتنا نظماً بديعة تتيه فيها أعظم العقول ومع ذلك فهي تعمل ـ على وجه العموم ـ طبقاً لمبدأين: مبدأ كيميائي وآخر كهربائي، فالكيمياء تؤثر في الكيمياء والكهرباء تؤثر في الكهرباء. ومن هنا راح علماء الكيمياء يتعاونون مع علماء الإلكترونات وعلماء الطبيعة لعلهم يفهمون ويدركون الأمور! فيمدون في سيطرة الإنسان، ثم تجني الإنسانية بعد ذلك ثماراً ليس كمثلها ثمار... نوم بدون أرق، أو حركة، أو صراخ أو كابوس، نوم سعيد هانىء يهبنا أياماً سعيدة، فهذه السعادة مرتبطة بذاك النوم «ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

السير في النوم «السرنمة»

ظاهرة شائعة سمعنا بها وشاهدناها أو قام بعضنا بها. ومن أمثلتها قيام النائم من فراشه وتجوله في الدار ثم عودته إلى الفراش وهو ما يزال في نومه.

يروي المختصون في دراسة النوم والأحلام كثيراً من الروايات (أو القصص) حول أشخاص ينهضون من أسرَّتهم، ويأتون ببعض الأعمال الغريبة.

مثال: أذكر أننا كنا فتياناً في أوائل الأربعينات من هذا القرن، وكنا نتدرب على بعض الأنشطة الرياضية من أجل إنجاح حفل رياضي كانت تقيمه ثانوية التجهيز أيام الحكم الفرنسي في سورية وكان الحماس يبلغ بنا شأواً عالياً معتبرين أن الحفل الرياضي تظاهرة وطنية كنا نؤكد فيها وجودنا القومي، فمنّا العدّاؤون ومنّا الملاكمون والمصارعون وغير ذلك.

وكان أشدنا حماساً لهذا الحفل الطالب (أكرم. ب) الذي كان عداءاً ممتازاً خفيف الحركة وسريع العدو، وكان المدرب المشرف قد أوقف التدريب على

الركض وطلب من الطالب (أكرم) أن يريح جسمه قبل الحفل بـ (٢٤) ساعة ينقطع فيها عن التدريب. وفي ليلة الحفلة نام (أكرم) مبكراً في الطابق العلوي من الدار العربية، وخلالها كان أبواه مع لفيف من إخوته وأقربائه جالسين في الليوان يسمرون وإذا بهم يشهدون ابنهم ينزل مسرعاً على الدرج ويدور حول البركة في منتصف الدار ثلاث دورات سريعة ثم يعود إلى الدرج يصعد ويرجع إلى النوم، وقد ظن الأهل أن ابنهم مستيقظ وأنه نزل ودار حول البركة وهو يقظ. كلموه وهم يسألونه عما إذا كان يريد شيئاً من الأشياء فلم يرد على أحد وعاد مسرعاً. . خشي الأبوان على ولدهما واستغربا تصرفه ولم يحدِّثاه بالأمر، ولما انقضت الحفلة بفوز (أكرم) وبعد أن مضى على حادثة الركض الليلي ثلاثة شهور كلَّماه في الموضوع ففهما منه أنه كان نائماً في تلك الليلة وأنه كان يحلم بالحفل وأن مكان المباراة في الركض يشبه بيته وأن عليه أن يدور حول البركة عدة مرات انتهت إلى فوزه وتصفيق الجماهير المحتشدة، والحماس على أشد ما يكون.

يمكننا أن نستخلص من هذه الحادثة أن الحلم: **قد يكون فعالاً وأن النائم يقع تحت تأثير «انفعالات فاعلة» لا مجرد انفعالات.** وإن الناس قد يستغربون من حركة النائم وقيامه ببعض التصرفات مثل المشي والركض والخروج من باب المنزل واقتحام بعض الصعوبات والسير في الطريق ومن ثم يعود هذا الحالم إلى فراشه، متحاشياً بعض الأشياء مسيطراً على حركاته وكامل جسمه، وهو في ذلك نائم ولم ينقطع عن النوم.

ويروي الدكتور أحمد فؤاد الأهواني[1] أن شخصاً نهض من فراشه، وخرج من النافذة ومشى على كورنيش الدار من الخارج، وتجمع الناس في الشارع يحبسون أنفاسهم خشية وقوعه وظل النائم يمشي على الكورنيش وعيناه مغمضتان حتى دار حول المنزل ثم عاد إلى النافذة ودخل منها وعاد إلى سريره. ولما استيقظ لم يذكر شيئاً مما حدث أثناء كل ذلك. لقد كان يتحرك وهو نائم! . . .

* * *

(١) النوم والأرق. د. أحمد فؤاد الأهواني. القاهرة ١٩٥٥، ص ٧٩.

يفسر بعض العلماء سلوك (السير في النوم) بالحركات الآلية (Automatisme) وفيها يصبح المرء أشبه بالآلة التي تستجيب للمثيرات فيتحرك تحرك الآلة دون وعي ويقوم بأعمال تعودها واكتسب العادة فيها دون أن يخطىء. فالفتى الذي ذكرناه في كل من المثالين السابقين كان يتحرك دون وعي ولكن بتركيز آلي شديد. وتتمثل الآلية بتصرفات أخرى عدا المشي والعدو، مثل الكتابة أثناء النوم أو القراءة أو أي عمل آخر.

حكى أحد الأطباء النفسيين[1] أن مريضاً أتى إليه يشكوه الوسوسة وأنه يرى نفسه مدفوعاً بصورة قهرية إلى أن يغسل يديه فعالجه بطريقة «الكتابة الآلية» أي علمه أن يكتب بيده ثم لما سأله عن الوسوسة، أخذت يده تكتب قصة قديمة مرت معه في حياته حين كان في العاشرة من عمره وكان عنده كلب محبب لديه وذات يوم وقع الكلب في مجرى من الماء القذر وكاد يغرق، وهنا طلب الفتى من أحد المارة في الشارع أن يمسك من رجليه ومد يديه وأنقذ الكلب ونشله من الماء القذر بعد أن تلوث جسمه وثيابه وحين عاد غضب أبوه منه وأفزعه قائلاً أنه بفعله هذا عرَّض نفسه لكثير من الأمراض والجراثيم، وهكذا غُرست في الفتى وسوسة يجد نفسه إزاءها مدفوعاً إلى غسل يديه واستقذار أصابعه وكفيه.

هذا وإن سلوك «السير في النوم» إما أن يكون «هرباً وعدواً» وإما مجرد «حركة» في أثناء النوم.

وإن تحليل نفسية من يسيرون في النوم يؤكد وجود إثارة، كثيراً ما تكون بليغة وشديدة فهم يحلمون حلماً حركياً وتكون حركاتهم قهرية وغير إرادية، وفي الغالب تكون هذه الحركات استجابة مخففة للتوتر عندهم من جراء وجود مشكلة من المشكلات في حياتهم.

• • •

(١) المرجع نفسه، ص ٨٣.

الفصل السادس

الأحلام

الأَحْـلام

آيات بيِّنات في عالم الأحلام

يجمع لفظ «الحلم» في لغة العرب بين طرفين متباعدين من أطراف الحياة النفسية الرؤيا والرؤية. الرؤيا التي تكون في المنام، والرؤية التي تكون بفضل العقل المتيقظ. جاء في الفيروزبادي الحُلُم بالضم، وبضمتين الرؤيا، جمعه أحلام يقال فلان حلم في نومه. والحِلم بالكسر الأناة والعقل جمعه أحلام وحلوم ومنه قوله تعالى:

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

ويقال عن الرجل أنه حليم أي عاقل وجمعه حلماء. لقد جمعت اللغة العربية في مادة «الحلم» بين طرفين متباعدين من أطراف حياة العقل: طرف العقل الباطن الخفي الذي ينشط أثناء النوم. وطرف العقل الظاهر الذي ينشط أثناء اليقظة.

وفي وقت لم يكن فيه علم النفس قد تكوَّن أو شب على قدميه. وفي مدة زمنية مغرقة في القدم وقبل أن يتعرف الناس إلى عالمي العقل الباطن والعقل الظاهر كانت العربية قد صاغت لما يراه النائم في نومه ولما يراه العاقل في تأمله لفظاً واحداً في مادته. فما أبدع لغتنا العربية وما أروعها وأكرمها.

وفي العصر الحاضر وبعد التقدم الذي أصابه علم النفس ظهر مبدأ **وحدة الحياة النفسية** وانطلاقاً من هذا المبدأ نستطيع أن نرى في كل فرد اتجاهاً موحداً يميزه مما عداه، اتجاهاً تكاملياً يضم في نسق واحد أدنى المستويات وأعلاها، وهكذا تتبدّى أحلام كل إنسان متأثرة بمعقولاته وأفكاره واهتماماته، فلا عجب إذا وجدنا أن أحلام القضاة تختلف عن أحلام اللصوص. كما تختلف أحلام الظالمين العتاة عن أحلام البسطاء أو الظرفاء، وكما تختلف أحلام العباقرة عن أحلام ضعاف

العقـول أو العاديين من النـاس. وسنعمـد الآن إلى بيـان بعض التحليـلات العلميـة لأحلام المنام بادئين بنظرة تاريخية لأشهر الأحلام التي شاعت في دنيا الناس.

أحـلام تاريخيـة

اشتهرت في الكتب السماوية أحلام «الرؤيا الصادقة» ومن أشهر هذه الأحـلام نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ **حلم النبـي إبـراهيم عليه السـلام**: لقد رأى في منـامه أنـه يذبـح ولـده وحين أفاق من هذا الحلم نادى ولده إسماعيل وهو يقول:

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾.

لاحظ هنا العبارتين إني أرى، ماذا ترى (الرؤيا مع الرؤية):

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

وهكذا عرف الفداء واتُخذت الأضاحي.

٢ ـ **أحـلام النبـي يوسف (عليـه السلام) وهي كثيـرة**، لقد اختـار الله تعالى يوسف ليكون نبياً في قومه وعلَّمه تأويل الأحلام.

(أ) وكان الحلم الأروع تلك الرؤيا التي رأى فيها سيدنا يوسف عليه السلام أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين وبعـد انقضاء هـذا الحلم روى يوسف لأبيه ما رآه في المنام، فنصحه والده، بألّا يقص على أخـوته مـا رآه فيكيدوا لـه ثم يتحقق هذا الذي توقعه الأب وتدور حياة سيدنا يـوسف حول هـذا الحلم وينتقل من خطر إلى خطر وينتهي بأن يعود الأخوة (الذين فرقتهم أطماعهم) إلى أخيهم يـوسف الذي أعزه الله وأعلى شأنه وحقق نبوءته.

(ب) وحين يسجن النبـي يوسف عليه السلام تنفيذاً لمكيدة امرأة عزيز مصـر يشهد السجناء جميعاً صلاحه وتقواه فيقصون عليه أحلامهم ويسألونه تأويلها فيشتهـر أمره بوصفه قادراً على تأويل الأحلام.

(ج) ورأى فرعون مصر تلك الفترة حلماً أقلقه وأقض مضجعه ﴿سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وَأخر يابسات﴾، والتمس بعد ذلك تفسيراً لحلمه، ويعجز المفسرون. حينئذ ينصحه الذي عرف يوسف في السجن ثم نجا باللجوء لسيدنا يوسف عليه السلام الذي يفسر الرؤيا بأن البلاد سوف تتعرض إلى سبع سنوات من القحط والمجاعة تأتي بعد سبع سنوات من الرخاء والإخصاب ويسر فرعون مصر من التأويل، فيكلف النبي يوسف بتنسيق الخطة التي اقترحها بإدخال الفائض من سنوات الخصب ليكون سنداً لمصر في سنوات الشدة، إلى آخر ما رواه القرآن الكريم.

من الأحلام العلمية

يروى عن العالم الكيماوي (ف. أوغست كيكولا) الألماني أنه شعر في عام (١٨٦٥) بالارتباك والقلق إزاء المعادلة الكيميـاوية لمادة البنزين. إنه كان يعلم أن جزيء البنزين يشتمل على ست ذرات من الكربون لكنه لم يتمكن من تصور الهيئة التي كانت تتحد بها هذه الذرات. يقول تاريخ الفكر: إنه لما يئس من اكتشاف تلك الهيئة توقف عن التفكير والبحث وأدنى مقعده من المدفأة وراح يغط في نوم عميق، وهنا رأى فيما يرى النائم ثعباناً يلتف حول نفسه مكوناً حلقة كاملة مقفلة. وحين استيقظ راح يفكر أن ذرات الكربون في جزيء البنزين يمكن أن ترتب بنفس الصورة، أي أنها عبارة عن ست ذرات متصلة مكونة صورة حلقة مستديرة واحدة. وبعد هذا الحلم بعدة سنوات زار كيكولا لندن وهناك وفي إحدى الحافلات بالمدينة استرخى الرجل ونام... ورأى في حلمه ما أوحى إليه بالفكرة الأساسية في نظرية التكافؤ الكيمياوي!!...

تأويل الأحلام[1]

قديماً اشتهر التأويل عند الصينيين والبابليين وبحث فيه سقراط وأفلاطون

(١) يتوجه تأويل الأحلام في الحضارة الإسلامية صوب المستقبل، لأن دين الإسلام دين المستقبل وما سيكون. وأحلام الإنسان هي في نظر دين الله إمكانات للتوجه من الحاضر صوب النور والخير: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى =

وأرسطو. أما سقراط فكان يرى في الحلم صفة القداسة، ولذا فالأحلام تكشف عن مستقبل من يرونها وكان أفلاطون يرى فيها ضرباً من الوحي تتذكر فيه الروح معارفها السابقة. أما أرسطو فكان يرى أن الأحلام تعبر عن بعض وظائف المخ الطبيعية. وفي حضارة الإسلام اهتم العلماء بالأحلام اهتماماً خاصاً نظراً إلى أنها تمثل عند الأنبياء صورة من صور الوحي الصادق وعند الأولياء بعضاً مما يصوره الملاك وهكذا تكون الأحلام واحدة من ثلاث رؤيات: رؤيا من الله، ورؤيا من الملاك، وثالثة من الشيطان.

الأولى هي الصريحة الصادقة ولا تحتاج إلى تأويل، والثانية تحتاج إلى تعبير أو تفسير، والثالثة هي الأضغاث والتخليط.

ويرى ابن حزم الظاهري في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل أن الأحلام على أنواع، فمنها ما يكون من الشيطان وهو ما كان من الأضغاث التي لا تنضبط ومنها ما يكون من النفس وهو يتصل بما يشغل به المرء في يقظته فيراه في النوم (خوفاً من عدو) (أو لقاء مع حبيب) ومنها ما يكون بتأثير غلبة الطبع.

فمن غلب عنده الدم حلم بالأزهار، ومن غلبت عنده الصفراء حلم بالنيران، ومن غلب عنده البلغم جاءت في أحلامه المياه والثلوج والشلالات، ومن غلبت عنده السوداء حلم بالكهوف والظلم والمخاوف.

ومنها ما يريه الله عز وجل نفس الحالم إذا صفت من أكدار الجسد.

يروي ابن سينا فيقول: «وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى ما يعيد إلي قوتي فأتناوله ثم أرجع إلى القراءة ومتىٰ أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى أن كثيراً منها انفتح لي وجوهها في المنام» (انظر كتاب عيون الأنباء في طبقة الأطباء لابن أبي أصيبعة).

= النور». وبالطبع فإن هذا التوجه يخالف تفسير الأحلام الفرويدي الذي يدور حول الجنس في ماضي الإنسان بانحرافاته وأمراضه.

ويروى عن الموسيقي الألماني (فاغنر ـ WAGNER) أنه كان يسعى جاهداً كي يوفق إلى افتتاحية ترضيه وباءت كل محاولاته بالفشل حتى نام ذات يوم فسمع في منامه أنغاماً ملأته بالرضا والسعادة، ولما أفاق أعاد إلى سمعه الأنغام التي حلم بها في المنام، فجعل منها افتتاحية رائعة لمقطوعته الموسيقية (DAS RHEINGOLD).

وكتب الشاعر الإنكليزي (كولردج ـ COLERIDGE) قصيدة (قبلاخان) وهو في حالة من الخدر بين النوم واليقظة ولما وصل إلى البيت الرابع والخمسين حضر إلى بيت الشاعر أحد معارفه، فأيقظ الشاعر من نومه ولما انصرف الضيف كان معين الشعر قد نضب، فحاول الشاعر بعدها أن يزيد في القصيدة بيتاً فما أفلح وظلت (القصيدة الحلم) على حالها.

دراسة الأحلام

من الثابت أن حياة الإنسان تخضع لإيقاعات دورية أهمها توالي حالتي النوم واليقظة، أما النوم فيستغرق حوالي ثلث حياة الإنسان.

معظم الناس يحلمون في منامهم، وإذا ظن البعض أنهم لا يحلمون ففي الغالب هم مخطئون. كان الرأي الغالب أن فعالية الإنسان العقلية والحركية تتوقف أو تنقطع أثناء النوم، وقد أثبت العلم خطأ هذا الرأي وأبان بأن النوم ليس حالة سلبية محضة. فالنائم لا تنقطع صلته بالعالم الخارجي هو لا يرى كما يرى اليقظ لكن الرؤية لا تنعدم بالكلية لديه. أما سمعه فيتضاءل حجمه بنسبة تقل عن تضاؤل حجم الرؤية، فالنائم يسمع وإن كان تأويله للأصوات المسموعة يعاني انحرافات كثيرة. إذا كانت بعض المراكز العصبية الدماغية تظل أثناء النوم في حالة شبيهة بالتخدير العميق، فإن بعضها الآخر يظل يواصل نشاطه على نحو «واهن» متقطع، وهكذا فإن ذهن النائم لا يكون في حالة جمود أو سكون تامين.

إن التنبيهات الخارجية والداخلية تتابع نشاطها فتتكون منها أنواع من الصور الذهنية هي التي اصطلح على تسميتها بالأحلام. ونشاط الصور الذهنية في النوم

وإن كـان ينخفض في توتـره ودقته إلا أنـه يظل يعمـل ولا يقتصر هـذا النشـاط على تأليف صور (مـركبة) بـل يتعدى ذلـك إلى إيجاد وإبـداع صور جـديدة، تنـظم وفقاً لمنطق خاص هو منطق الأحلام.

ويختلف هذا المنطق عن منطق العقل الواعي في أحوال اليقظة.

بين منطق الأحلام ومنطق الواقع

يقـوم منطق الـواقع على جملة مبـادىء أهمها مبـدأ الهويـة أو الـذاتيـة ومبـدأ السببية والحتمية ويقتضي مبدأ الهوية ثبات الأفكار والصور والأشياء، إنَّ ما هـو هو، وكل شيء يظل عين ذاته. إن فنجاناً من الشاي يـظل فنجانـاً من الشاي، والملعقـة تظل ملعقة ما دمنا في حَيِّز الواقع واليقظة، أمـا منطق الأحـلام فيعتمد على مبـادىء أخـرى، وهكذا فـإن فنجان الشـاي يمكن أن يتحول في المنـام إلى مسبح، مسبح يتسع ويتسع ويصبح بحيرة كبيرة ثم بحراً تتـلاطم أمواجـه، وأما ملعقـة الشاي فقـد تتحول إلى مركب فضي، إلى يخت جميـل أو بارجـة حربيـة... وفي أثناء اليقـظة لا يسعى أي عاقل سعياً جديـاً لتحويـل فنجان الشـاي إلى مسبح أو بحيـرة، أما في الأحـلام فإن الأمـور تجري في مسـار آخر مختلف. يشتهي أحـد الأطفال لـو يسبح الآن، لكن الـوقت شتاء مليء بـالعواصف والأمـطار والبـرد، يلح الـطفـل في طلب السبـاحة فيجيبـه والده أن عليـه أن ينتظر قـدوم الصيف وحينذاك ستتـاح له فـرصـة السبـاحة، يكـرر الصغير تـوقه إلى السبـاحة ويفهمـه أبوه أنـه حين تتوفـر في بلادنـا مسابح شتوية دافئـة يمكن للإنسـان أن يسبح في الشتـاء. لم يكن الطفـل قد سمـع بوجود مسابح سـاخنة ولهـذا يستفهم عنها فيقـول الأب (وهو يشـرب الشاي) أرأيت يا بني هذا الشراب الساخن في فنجانك؟ إن مؤسسات المسابح الشتوية تقوم بتدفئة المـاء وبكميات وافـرة، تصبهـا في مسـابـح مغـطاة ببنـاء مغلق يعـزلهـا عن العـالم الخارجي، تماماً كما يصب الشاي في الفنجان وينقطع الحديث ويمضي الطفل إلى شأنه وقد اندست في أعمـاقه أمنيـات، آه لو كـان يعيش في بلد تتوفـر فيه المسـابح الشتـوية... إذن لكـان أسعد النـاس: يسبح ويقفـز في الميـاه البـاردة في الصيف والساخنة في وسط البرد.

وفي أثناء النوم في تلك الليلة (أو لعل الأمر يتم بعد ليال أخرى) يرى الطفل نفسه في حلم عجيب. . .

إنه مع رفاق صفه يقفزون من فوهة إبريق كبير بحجم غرفة الصف ويتدافع الصغار ويسقطون في فنجان وهم يتضاحكون، يخشى الصغير على نفسه أن يرتطم لكن الفنجان يتسع ويتسع وإذا به ينقلب إلى بحيرة من الشاي. . .

الشاي الدافىء الأحمر، فما أعذب هذا وما أجمل أن نحلم.

بعض الحقائق

١ ــ يقوم الحلم على إشباع رغبة أو عدة رغبات مكبوتة أو تحرير ذكريات مقموعة، وهكذا فإننا نحلم بما نشتهي أن يتحقق، وقد نحلم بما نخشى أن يتحقق.

ولا نكاد نعرف متى تنسج أحلامنا من الرغبات الحلوة ومتى تنسجها المخاوف المسيطرة وهكذا فإن من الصعب أن نتحدث عن أغراض ثابتة لأحلام الناس حتى عند إنسان واحد بالذات (راجع المرجع السابق WHY ON EARTH).

٢ ــ هناك صلة وثيقة بين أحلام الإنسان وحياته اليومية ولا يمكننا أن نتأكد ما إذا كانت الأمور الهامة التي تسيطر علينا في اليقظة، أو الأمور العابرة البسيطة هي التي توجه عمليات الأحلام أم لا.

٣ ــ مؤكد أننا نحلم في الليلة الواحدة بأكثر من حلم واحد، إن أحلامنا تتكاثر في أول النوم وفي آخره قبيل اليقظة ولكننا لا نتذكر إلا الحلم الأخير الذي أفقنا فيه أو بعده.

٤ ــ في أثناء النوم يتضاءل عمل الرقيب (وهو شعوري) وتسود النفس العناصر المكبوتة أو الذكريات القديمة فتتكون بذلك أحلامنا، ولكن حين يستيقظ المرء من نومه يقوى الرقيب فيقمع كثيراً من أحلامنا فينسى المرء معظم أحلام نومه أو تفصيلاتها.

٥ ــ بما أن الرقيب الشعوري لا ينعدم فعله أثناء النوم فإن الرغبات المكبوتة تحتال على الرقيب وتخفى لتعبر عن نفسها، فتتخذ أشكالاً مجازية وأساليب رمزية هي غاية في التخفي والذكاء. . .

إن الرموز هي اللغة المفضلة التي تؤثرها الرغبات في الأحلام، فالأب الفظ قد يبدو في الحلم بصورة الحاكم الظالم والأبناء العاقون قد يظهرون بمظهر الحيوانات الصغيرة، وعصا المعلم تظهر في صورة الأفعى. . . وهكذا. . .

٦ ــ لا يتحتم أن تكون جميع أحلامنا متناقضة مع الواقع، بل يرى النائم نفسه في الحلم وهو يقوم بأعمال مترابطة ذات معنى واقعي. . . وقد يفيق أحدنا من حلم مزعج، ثم يبلغ الانزعاج مبلغاً يجعل الرقيب يستيقظ بعض الشيء ليقول للفرد. . . إنك في منام يا رجل. . . الحمد لله.

٧ ــ للأحلام وظيفة أخرى غير الوظيفة التي أشار إليها (فرويد) من إعادة الذكريات القديمة المكبوتة، هذه الوظيفة هي «حماية النوم» والدفاع عنه، فحين تنام فأنت مضطر إلى التقلب والتحرك بين الفينة والفينة، أما الحلم فوظيفته أن يصنع لنا (فيلماً) يتابع عقلنا الباطن مشاهدته ومتابعته فلا تستيقظ.

٨ ــ قد تتحول الأحلام العنيفة إلى كوابيس وذلك حين تُستثار مخاوفنا وقد نصرخ أو نقوم بأنين عميق يسمعه من هم في جوارنا. . .

٩ ــ لا تدوم الأحلام لفترة أطول من عدة ثوان، والمجال لا يسمح بذكر التجارب والإثباتات التي تؤكد هذه الناحية. إن أطول حلم تحياه، تسافر فيه، تركب طائرة وتهبط في بلد أو بلدان، وتتعرض فيه إلى الأفراح أو غير الأفراح، وتتعرض لمخاطر ثم تنجو منها. . . كل ذلك يتم في ثوان. . . قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . . . وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ . . . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الروم].

١٠ ــ تنشأ الأحلام عن عدم الإشباع أو الارتواء، إن إنساناً قد شبع وارتوى لا يحلم قط بما شبع به ويمكنه أن يحلم حين يتفتح فيه الطموح من جديد أو حين يتصور آلام الآخرين وأفراح المستقبل.

أين إذن تكمن أحلام السعادة؟... إنها تكمن في الأكواخ، وفي المشافي، وفي السجون.

وعند المؤمنين الصادقين تكمن في لهفة الدعاء وفي الأمل بالله ومحبته والفوز برؤيته في اليوم الآخر فَلَا عَيْنٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[1].

ومن قبيل الإعجاز القرآني أنه ورد في ختام الآية عبارة لقوم يسمعون. وقد ثبت في علم النفس أن السمع لغة النائم.

* * *

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

الفصل السابع

أحدث آية نفسية كشفها العلم

«التنويم المغناطيسي»

«التَّنْوِيمُ الْمَغْنَاطِيسِيّ»

لا تسمح الحالة العلمية اليوم بمعرفة واضحة عن التنويم المغناطيسي لكن التجارب الموضوعية لظاهرات التنويم المغناطيسي تعطينا تأكيداً لوقائع محددة يمكن مشاهدتها وقد يصعب تحليلها حسياً أو تعليلها بحسب مفاهيمنا العلمية السائدة اليوم ولكنها على أية حال تطلعنا على جوانب أخرى من جوانب الحياة البشرية (أو ما يمكن تسميته باسم الطاقات الروحية).

* * *

يرى الباحثون أن التنويم المغناطيسي يحدد بوصفه[1]: «حالة غيبوبة من النوم عميقة شبيهة بالنوم المعروف، مع فارق خاص وهو أن النائم يكون تحت سيطرة شخص آخر يسمى بالمنوم ويتلقى منه أوامره أو إيحاءاته». ومن الثابت المؤكد أنه لا يمكن أن ينوَّم أحد تنويماً مغناطيسياً إذا كان لا يريد أو لا يرغب أن ينوَّم، كما أن هذا المنوَّم يستطيع أن يخرج عن التنويم إذا أجبر على تصرف يخالف أخلاقه وقيم وعادات سلوكه المألوفة لديه بشكل صريح وواضح.

لقد ارتبط التنويم المغناطيسي ــ في أذهان الناس ــ وخلال زمن طويل بأعمال السحر وتصور بأشكال غريبة من التسلط أو التحايل أو الألعاب، وما يزال الكثيرون يعدونه ضرباً من الأمور الغامضة، أو ضرباً من أفعال الشعوذة والدجل، والحق أن التنويم لم يفهم حتى الآن فهماً تاماً، وما يزال يستغل من قبل المشعوذين. وعلى الرغم من كل شيء فقد بحث من قبل علماء النفس بحثاً مستفيضاً وموسعاً في القرن العشرين. وقد جهد هؤلاء العلماء وحاولوا كثيراً أن ينمّوا بطرق تجريبية النظريات العلمية التي تشرح التنويم وتفسره بشكل موضوعي،

---

(١) PSYCHOLOGY FOR YOU, P. 234 GORDON SOL. NEW YORK 1970.

والجدير بالذكر أن التنويم يستعمل حالياً في بعض حالات مرضية خاصة بغرض المعالجة ولمواجهة بعض الانحرافات الانفعالية والعقلية.

إجراءات التنويم

أول ما يقوم به المنوم أن يعمد إلى خفض الوعي أو التنبه لدى الفرد المنوَّم، ومن أجل ذلك يعتّم المنوم الغرفة ويقطع السبيل عن كل الأصوات، ويظل يتحدث وحده بلهجة بطيئة وحالما يسترخي المنوَّم يؤكد المنوم عبارات أو جملاً يقول فيها: «إنك تسترخي، تسترخي بأقصى الدرجات... ابقَ هادئاً... بلا حركة... جسمك هادىء... مستريح مستريح...». ثم يوجه انتباهه إلى أماكن معينة، ويحاول تفريغ وعيه «إصبعك السبابه وحدها تتحرك... وحدها تتحرك، وسترتفع ذراعك لا تمنعها...».

وبديلاً من الوعي يسعى المنوِّم إلى امتداد ذهن المنوَّم في الزمان والمكان. وذلك بطريق الانتقال من موضوع إلى موضوع، أو بطريق التحول المستمر إلى أشخاص يشعِر المنوِّم أنه يكلمهم ويتسارع في كلامه دون انقطاع فيشعر المنوّم بصعوبة تلاحقُهُ، وأخيراً يلجأ المنوم إلى بناء علاقات خاصة مع المنوم على مستوى يمكن وصفه بأنه غريب أو خاص، وقد يعده ببعض النتائج أو يقنعه بأنه قادر على أن يكشف عن أعماق تفكيره أو عقله أو يدخل معه إلى عالم جديد من التجارب.

وبعد مرحلة التحريض هذه يمكن أن يعطي المنوِم المنوَّم تعليمات معينة أو قد يتركه وحده يفعل ما يشاء، وهكذا نرى المنوَم يستسلم للغيبوبة... ولا تنتهي هذه الحالة إلاَّ بأمر المنوِم حين يعلن النهاية... نهاية الجلسة...

صفات الغيبوبة المغناطيسية

إن الامتياز الرئيسي لحالة التنويم المغناطيسي يقوم على الاستفادة من إمكانيات إنسانية عامة يمكن أن يطلق عليها (القابلية الإيحائية العليا SUPRA SUGGESTIBILITY)، وهذه القابلية هي درجة عليا من درجات الإيحاء الطبيعي، وأما العديد من المؤثرات الأخرى فإنها يمكن أن تكون لاحقة بهذه القابلية بحيث

يغدو الفرد (تحت تأثير المنوم) أكثر قدرة على التحكم ببعض ردود الفعل شبه الطوعية (SEMI VOLONTARY) كالاستجابة للألم والإدراك والتذكر، فمثلاً قد يُقال للمنوَم إنه «لن يشعر بوخز الدبوس» إن المنوِم يخز المنوَم ورغم ذلك فإن هذا الأخير لا يحس بذلك الوخز، وأما الدجّال المشعوذ فإنه يعجز عن هذا، لكن المنوَّم يملك قابلية تسمح لنفسه أن لا يشعر بأي ألم، وهناك تأثير مماثل يمكن أن يحرض وهو (الآنستازيا ــ ANESTHASIA) أو ما يمكن تسميته «فقدان الحس أو فقدان الإحساس الكامل بجزء من الجسم». وقد يذكر المنوم مثلاً أن الذراع أو الساق ستصبح أخف وزناً، أو حتى أنها غير موجودة إطلاقاً وأما المنوم فإنه يستجيب لكل ذلك، وبصورة عامة فإن الإدراك لدى المنوم يمكن أن يؤثر فيه المنوم بطريقة دراماتية. ففي إحدى التجارب ذكر المنوم للفتاة الشابة التي ينومها أن الرجل الذي كانت تراه في الغرفة قد غادرها (في حين أن الرجل لم يغادر الغرفة) ولما سألها بعض الأسئلة فقد أجابت كما لو كان الرجل قد ذهب خارجاً بالفعل، وحتى أن الرجل المذكور أقبل نحو الفتاة وحرك إحدى يديها (ورفعها إلى أعلى ثم إلى أسفل) ورغم كل هذا ظلت الفتاة تتصرف كما لو أن الرجل غائب وبعد فترة أجابت الفتاة أنها لا تذكر أن ذراعها قد تحركت بل قالت أنها تعتقد أنها قامت برفع يدها، وذلك لأن المنوم كان قد قال أن يدها ستتحرك من ذات نفسها. وإن كلام المنوم هذا قد تحكم في شعور الفتاة إلى درجة أنها كما يبدو لم تعد تبصر شيئاً أمامها. وأكثر من هذا فإنها أخذت تفسر أعمالاً قام بها الرجل مثل تحريك يدها، دون أن تشعر بأنه هو الذي حركها.

إن الأشخاص المنومين مغناطيسياً يكونون في العادة أقل وعياً لذاتهم منهم في الحالات العادية، وهذا قانون عام. وشيء آخر وهو أنهم ــ أثناء التنويم ــ قد يظهرون بعض الدوافع الكامنة عندهم، فمثلاً إن بعض المنومين قاموا بمص أصابعهم أو بأفعال حادة كالبكاء والغضب والاستغراب من غير أن يقال لهم أي شيء عنها، فهذه الاستجابات الانفعالية يرجح أن لها صلة ببعض الدوافع والحاجات الطفولية القديمة المكبوتة التي لم تتحلل نهائياً بل ظلت قابعة في اللاشعور عندهم.

العلاج والمداواة بالتنويم

قد يُستخدم التنويم كأسلوب من أساليب مواجهة بعض الانحرافات النفسية وذلك بالاستناد إلى أن العلاقة بين المنوم والمنوم قادرة على أن تبدِّل اتجاهات الشخص المنوم وتغيرها، وبشكل عام فإن المنوم يتخذ دور فرد هام مثل أبيه وأمه أو أستاذه. . . أولئك الأشخاص من ذوي الأهمية البالغة عنده.

وهكذا فإن المنوم تتبدل دوافعه وأهدافه تحت تأثير دوافع أخرى يفرضها عليه المنوم ويغير بها سلوكه. فلننتبه إلى المثال الآتي:

كان أرثر فتى هادئاً حين كان يعالج من قبل مختص نفسي وعلى الرغم من أنه كان نابهاً في المدرسة، فقد كان شديد الانطواء على نفسه بادي الخجل، لقد كان بشكل عام فتى انسحابياً مغلقاً على ذاته، ولم يكن قد انتسب إلى أي نشاط مدرسي رياضي فيه اللعب أوأية فعالية كالمحاورة والنقاش والتحدث مع الآخرين، لكنه غدا تحت تأثير التنويم قادراً على أن يتكلم ويفصح عن مشاعره ورغبات نفسه بسهولة ويسر حتى صار يتحدث بسهولة منشرحاً بشكل واضح، لقد صرح أنه يتمنى أن يضرب من كان يعالجه من قبل على فمه، وهكذا أظهر أنه كان يخفي ميولاً عدوانية حادة نحو أبيه، وبتأثير التنويم نقل الفتى مشاعره العميقة نحو أبيه، فأسقطها على المختص النفسي الذي كان يتولى معالجته. وعلى هذه الشاكلة يستطيع المريض النفسي أن يسترجع بعض الحالات القديمة والكامنة في أعماق حياته، يستطيع مثلاً أن يستعيد الصراعات والتجارب الأليمة التي مرت به في السنوات السابقة. وهكذا ظهر أن أشياء كثيرة كان يجهلها المنوم أو يجهل سبب وجودها عنده وإزعاجها له وإذا به بعد التنويم يتعرف عليها ويدري بها ويدرك أسبابها.

مثال آخر: كان وليم فأفاءً تأتاءً خلال فترة طويلة، وكان يُعنى به، من قبل مختص نفسي اعترف أن العلاج النفسي كان بطيئاً محدود النتائج معه، ولكنه تحت تأثير التنويم تلقى إيحاء من المنوم أكد له أنه قادر أن يتكلم دون فأفأة، وعندما سأله المختص النفسي قائلاً له: «لماذا كنت تفأفىء من قبل»، أجاب من غير فأفأة:

«حتى يشعر الناس من حولي بالحرج أمامي». وهكذا اعترف وليم أنه كان يحتاج إلى الفأفأة كي تعينه على التكيف مع الناس[1].

ولدى دراسة وقائع من هذا النوع تبين أن العلاج النفسي التقليدي يمكن أن يترافق مع أسلوب العلاج التنويمي.

نظريات التنويم

حينما شاع التنويم لأول مرة بدا أمراً غير معقول وشديد الغرابة ثم ظهرت محاولات عديدة تستهدف تفسيره. وكانت أولى المحاولات تستند إلى أسس من السحر والشعوذة:

١ ـ وهكذا ارتأى بعضهم أن التنويم المغناطيسي نتيجة من النتائج المشتقة من وجود تيار «مغناطيسي» تيارٌ يتحرك بين المنوم والمنوم وينتقل منه إليه.

٢ ـ ثم شاع مصطلح «المغناطيسية الحيوانية»، وانتشر بين الناس بهدف تفسير ذلك التأثير، ولكن الأمور ظلت غامضة ويكتنفها الإبهام.

٣ ـ وهنا أدرك علماء النفس أنَّ عليهم أن يرفضوا التفسيرات الخيالية التي تستند إلى قوى الأوهام المضللة، وأخذوا بعكس ذلك يسعون وراء معرفة يقينية وعلمية أوضح تفسر السلوك الإنساني.

٤ ـ واليوم ينظر العلماء إلى التنويم بوصفه حالة من حالات غياب الوعي تختلف عن النوم العادي كما تختلف عن اليقظة التامة، وتقع بينهما.

إن فعالية اليقظة الاعتيادية تتميز بالانتباه المستمر وبالقدرة المتزايدة والمستمرة على التركيز نحو مختلف صور الحياة الواقعية. والإنسان العادي يستطيع القيام بهذا نظراً لأنه يملك هيكلاً أساسياً في صميم عقله.

وعلى سبيل الإيضاح نقول: إن أي طالب في أي صف من الصفوف يعرف

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٥.

أين هو موجود (في أية غرفة وأي مدرسة وأية مدينة)، ويستطيع أن ينقل انتباهه باستمرار (من الأستاذ الذي أمامه، إلى الساعة على الحائط إلى السبورة وما يكتب عليها فإلى كتابه الذي وضعه أمامه على المقعد)... إلخ. ويتم كل هذا من قبل الطالب دون أن يضيع أو يفقد هيكل البناء الأساسي الكامن في عقله (عن مكان وجوده وزمانه ومن هم حوله) إذ يتوجه صوب الحقيقة الواقعة التي هي مجموعة وقائع (تدور حول أسئلة من، متى، أين، لماذا؟؟... إلخ).

ولنفرض من جهة أخرى أن أحد الطلاب دب إليه النعاس وأخذته سِنَةٌ من النوم في يوم دافىء، إن هذا الطالب النائم في الصف يصبح أثناء الرقاد فاقداً الهيكل البنائي الذي أشرنا إليه (أين ومتى ومع من هو موجود... إلخ)، إنه قد سمح ــ في أثناء نومه ــ لهذا الهيكل أن يخبو ويبهت، وهذا يعني أنه راح يفقد توجهه نحو الواقع الذي من حوله فلم يعد يعرف أين هو أو ماذا يفعل، وهو لا يعرف الوقت أو ماذا يصنع غيره... وغير ذلك.

إن الشعور في التنويم المغناطيسي يقع بين اليقظة والنوم، وهكذا فإن توجه المنوم نحو الحقيقة الواقعية ليس مفقوداً بصورة كاملة ــ كما هي الحال عند النائم نوماً عادياً ــ لكنه يغدو محدوداً بتعليمات المنوم ضمن مساحة صغيرة جداً.

ومن أجل مزيد من الشرح نقول: إن وعي الحقيقة يمكن أن يبهت بصورة تدريجية، وإن الطاقة العقلية التي تستخدم عادة في استمرار هذا الوعي والمحافظة عليه يمكن أن يسيطر عليها المنوم ويوجهها نحو فعاليات متنوعة شتى، إن التنويم يُعَد حالة من حالات الشعور الشبيهة بالخمول (DROWSINESS)، وكما أن الخمول النعاسي يجعل الإنسان ينسى خلال فترات قصيرة أين هو وماذا يحيط به، فكذلك الأمر عند المنوَم، إن هيكله البنائي يتخلخل ويتعلق بأمور جديدة (هي ألفاظ المنوم وتوجيهاته).

نتيجة

نخلص مما سلف إلى أن مسؤولية المنوم في كل لحظة أمر ضروري

لا يُستغنى عنه وعلى كل من يقوم بأعمال التنويم أن يتجنب قيادة من ينومهم صوب أمور منحرفة أو عابثة أو غير أمينة، «**وعليه أن يتقي الله فيما يفعل**» بعيال الله.

هذا هو السبب في أنه لا يجوز أن يتورط امرؤ في شؤون التنويم المغناطيسي أو يستخدمه كنوع من التسلية والعبث، إن الإنسان كائن مخلوق بعناية الله صنعه بيديه وجعله من أسمى مخلوقاته وأرفعها، فهو لا يجوز أن يوضع موضع هوان أو تجربة عابثة. ولتظل الأخلاق ــ وهي علم الخير والالتزام به ــ تهيمن على المنومين وتسيطر على أعمال التنويم وتسود فاعليته. ولا مانع بل من الواجب أن يكون تنويم الناس هادفاً يستهدف الخير وإنقاذ المنحرفين والمرضى مما يعوق حياتهم وينأى بهم عن السواء والهدى.

موجز القول

إن التنويم المغناطيسي آية مستحدثة من آيات الله تعالى اكتشفها الإنسان الحديث وستكون باباً ينفذ بنا إلى معرفة أوثق بآفاق الإنسان الخفية والطاقات العجيبة غير المحدودة التي ينطوي عليها، كما تكون وسيلة من وسائل الشفاء أو أسلوباً من أساليب العافية.

واقعة رائعة فريدة

في نهاية صيف عام ١٩٨٩ أقيم في كاليفورنيا من الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر طبي حضره ٨٧٢ طبيباً ودُعيت أثناء المؤتمر زوجات الأطباء وصديقاتهن إلى الاشتراك في نشاط ترفيهي خاص وُصف بأنه قريب الصلة بمؤتمر أزواجهن الأطباء.

اجتمعت حوالي ٧٠٠ امرأة في قاعة كبرى للمحاضرات. ووقفت في المنصة وأمام الجموع السيدة إيزابيل ماك كونيل (وهي امرأة في الخمسين من عمرها) وُصفت أنها إحدى الخبيرات بتجارب التنويم المغناطيسي العلمية، وبوجهٍ مشرق وبلاغة واضحة قالت إيزابيل أنها ترغب بإجراء بعض التجارب في التنويم وهي لا تلزم واحدة على الاشتراك في هذا النشاط وأعلنت أن اللواتي لا ترغب في

التنويم يمكن أن تغادر القاعة من غير تثريب، وخرجت بعض النسوة وظلت الباقيات في أماكنهن وبعدها ساد صمت عميق ران على الجموع... أسدلت الستائر، وخفضت الأضواء، ومن خلال الضوء الخافت بدأت موسيقى هادئة أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً حتى انعدمت الأصوات، وبدأت المنومة تهمس بصوت واضح فقالت: نحن جميعاً هادئات هادئات مسترخيات مستريحات، الكل نائمات، نائمات ولا واحدة يقظة... واستسلمت الجموع إلى النوم، وأخذن يشعرن بسعادة غامرة إذ أعلنت المنومة أن كل الحاضرات سعيدات كل السعادة في هذا اللقاء الراقي المثقف، وأن حياتهن هي أجمل حياة وأرقاها وأن من واجبهن أن تمنح كل واحدة لزوجها حياة رائعة صافية تعينه على أن يبدع في عمله وينجح أكثر فأكثر. اقتنعت سائر النسوة بهذا وأدركن من أعماقهن أن هذا سوف يساعدهن على أن يعشن حياة سوية مفعمة بالصحة بإذن الله.

ـ فاللواتي تشكو من الصداع سيفارقها ألم الرأس منذ هذه اللحظة.

ـ واللواتي ترغب بالإقلاع عن التدخين ستجد نفسها تعافه بسهولة.

ـ وأما المدمنات اللائي يرين ألاَّ أمل في الشفاء من الإدمان فيشاهدن أنفسهن حالاً متحررات من تلك العقاقير البشعة الذميمة وستحس كل واحدة منذ الآن بهوان الإنسان المدمن وبالزراية والقرف من تعاطي مواد تعزز (الحيوان الذي في الإنسان) وتجعل الإنسان أحط من البهائم.

وبعد إيحاءات من هذا القبيل، استيقظت الحاضرات ممتلئات بالطمأنينة والمسرة وأصبحت كل واحدة واثقة من أعماقها أنها أهنأ امرأة وتملك صحة وافرة وعوفيت مما كانت تشكوه من آلام الصداع أو الرغبة بالتدخين أو الاستسلام لعبودية المخدرات.

وبعد استراحة دامت بعض الوقت، عادت المنومة إزابيل فأعلنت رغبتها بأن تنوم إحدى الحاضرات أمام الجميع، فتقدمت امرأة وجلست أمام الجمع، وبعد وضع عصابة على عينيها ابتدأت المنومة تنومها... وعلى أثر ذلك وبعد أن نامت المرأة أجريت المحادثة الآتية:

ـ الاسم الكريم؟...

ـ مدام ريدنغ من واشنطن.

ـ أهلاً بك! سيدة ريدنغ من أين حضرت إلى هنا؟

ـ من فندق بلازا على الشاطىء.

ـ أظن أن بوسعك أن تتذكري كل ما شاهدته اليوم حتى وصلت إلى هنا.

ـ بكل سرور.

ـ وتابعت المنوِمة: اذكري بالتدريج ماذا رأيت من حين مغادرة غرفتك ودونما عجلة، ممكن؟

ـ خرجتُ من الغرفة متوجهة إلى المصعد... كانت الساعة تدقّ معلنة الثامنة وكانت هناك نسوة وبعض الأطفال.

ـ كم عددهم؟...

وأخذت تعد: ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ امرأة والأطفال كثيرون... بعضهم كان يلعب، المصاعد تصل... أربعة مصاعد تتحرك.

ـ هل ترين أشكال النسوة وثيابهن؟؟...

ـ هذه امرأة ترتدي ثوباً رقيقاً أرى أنه قد لا يصلح للصباح البارد، وإلى جانبها امرأة مرتبة وأنيقة معها طفل والطفل وسيم كثير الحركة أنيق في ثيابه وتبدو عليه مظاهر الذكاء... وخلفهن سمراء يبدو أنها من الشرق الأقصى يمكن أن تكون يابانية أو من الفيلبين وهناك زنجيتان تتحدثان بنشاط.

ـ كم استغرق الوقت حتى نزلت في المصعد؟؟...

ـ لم أنتظر طويلاً... ثم أتى دوري في المصعد ونزلت مع غيري إلى المطعم... وفي المطعم اشتدت الجلبة، أحاديث الموجودين تختلط مع أصوات الصحون... الجميع يظهرون بصفات الطبقة المثقفة، وكانت فتاتان صبوحتان

ترشدان الجموع إلى أمكنتهم . . . كانت رائحة القهوة سائدة وتتخللها رائحة الكيك الشهية . . .

وتابعت السيدة ريدنغ تتحدث قدر ربع ساعة عن مشاهد المطعم والناس والفتيان وأصوات القادمين والجالسين والضاحكين وفناجين الشاي . . . إلخ . ثم تكمل كلامها وتسترسل قائلة : وبعدها تناولت نصيبي من القهوة مع الحليب . . . وخرجت مع زوجي ، وأمام الفندق كانت السيارات تتحرك ، هذه سيارة سوداء رولز رويس أنيقة مفروشة بالأبيض وأتت بعدها مرسيدس كحلية وبعدها حمراء . . . تلتها حمراء فارهة ، ركبت فيها فتاة شعرها أبيض خالص .

ـ وهل تتذكرين أرقام السيارات؟ . . .

ـ السيارة الأولى نمرتها صفراء . . . عليها إشارة إيلينوي رقمها يبدأ من الشمال 3 ثم 4 ثم 5 وصفر ثانٍ . . . ثم رقم أخير غير واضح يمكن أنه 8، ثم جاء دوري في الركوب وصلت إلى سيارة زرقاء فخمة نزل منها السائق وصعدت مع زوجي ، السائق يرتدي سترة كحلية أزرارها صفراء مذهبة . . . الصباح منعش والطريق أنيق مررنا من خلال الحدائق ، أريج الزهور ينتشر في كل مكان وتصعد مع رائحة العشب رائحة التربة المروية ومضينا إلى قاعة المؤتمر . . . ثم ذكرتْ رقم السيارة التي ركبتها وعدد الأشجار الضخمة .

وهكذا ظلت السيدة ريدنغ تتحدث وتشرح وتعدد المنعطفات التي انعطفت فيها السيارة . . . وتصف الطرقات والمشاهد والناس ، ومناظر البحر ، والمراكب البعيدة والقريبة والبلاجات وكانت تتكلم كمن يشاهد تلك الأشياء أثناء الكلام . . .

وقد تحدثت خلال اثنين وخمسين دقيقة عن أشياء وأمور عابرة كانت شاهدتها خلال دقائق مرجح أنها لا تزيد عن عشر دقائق . . . وبعدها أيقظت المنومة السيدة ريدنغ التي ظهر عليها التعب . . . وانتشر اللغط بعد ذلك .

محاولة في التحليل

من هذه التجربة وتجارب أخرى كثيرة في التنويم يمكن للباحث أن يستنتج أموراً كثيرة لعل أظهرها ما يأتي:

١ ــ إن فعاليات التلقي والاستقبال عند الإنسان في حياته اليومية **واسعة نشيطة** بمقدار كبير يعجز الإنسان عن تحديده وهو أغنى وأحفل بأشياء تتجاوز في حجمها وتعدادها كل تصور إنساني. ويمكننا بعد التحليل أن نتحدث عن:

ــ إن الإنسان يستطيع أن يلتقط ويتلقى ما تعطيه حواسه في معظم أوقاته إن لم نقل كلها. ويمكن للباحث أن يصف الحياة النفسية بأنها مجموعة فرص لا حد لها تعمل على التلقي والاكتساب.

ــ ولعل البصر يكون أقوى هذه الحواس في يقظة الإنسان.

ــ وتظل سائر الحواس الأخرى مثل الشم والذوق واللمس والإحساس بالحركة والحرارة، والشعور بالتعب والألم والراحة... تظل هذه الحواس قادرة على التلقي والاستقبال بلا هوادة... وتسيطر حاسة السمع على الإنسان أثناء نومه اليومي. (إن الإنسان كائن بصري في اليقظة وسمعي في أثناء النوم).

٢ ــ تظل فعاليات الاحتفاظ والاستحْواذ **والاسترجاع قوية في الإنسان**، ويمكننا أن نقول مع بعض العلماء في شيء من التثبت الأكيد واليقين الثابت ألاَّ شيء يضيع أو يتلاشى في الذاكرة بل يظل كل ما تلقته الحواس غافياً في مكانٍ ما وبطريقة غير معروفة إلى حين الطلب أن الذاكرة الإنسانية آية من آيات الله تعالى العظيمة وهي قوية وعجيبة ولها فيما يبدو نظامها الخاص الذي قد يكون له استقلاله عن الشخص صاحبه بالذات. وكثيراً ما يملي نفسه ويؤكد استقلاله عن المرء الذي ينتمي إليه. ولربما أظهرت الوقائع في الأيام والتجارب القادمة نوع العلاقة بين النظام المذكور للذاكرة وما يسمى في علم النفس بالإثارة أو التنبيه للأفعال والاستجابات القهرية، ذات الصلة ببعض الأمراض النفسية (كالوسواس والهستريا) أو الأمراض العقلية (كالبارانويا، وتضاعف الشخصية).

٣ ــ وإذا سأل سائل فقال: لماذا لا يحس الإنسان في حياته العادية ولا يشعر بتلك الأثقال المرهقة من التصورات والمعطيات الحسية. فإن المشاهدات العلمية والموضوعية تذهب بنا إلى **سيطرة الاهتمامات** وبالتالي سيطرة أفعال الانتباه. وإذا لوحظ أن الانتباه يفقر الشعور ويغنيه في آنٍ واحد، فهو يفقره بمعنى أنه يمنع الشعور عن الإحاطة بالأمور الخارجية عن الاهتمام وفي الوقت ذاته فالانتباه يغني الشعور بما يتطلبه الموقف فيرفده بالذكريات والصور الغافية.

وهكذا قرر الباحثون من علماء النفس أن ما نهتم به وننتبه إليه يرجع إلى واحدٍ أو أكثر من الأمور الآتية:

ــ ميول الإنسان وحاجاته الظاهرة والعميقة.

ــ مشاغله ومواقفه الآنية في كل لحظة.

ــ قوة التنبيه أو الإثارة التي تهيمن على الإنسان في لحظة من اللحظات[1].

٤ ــ تقوم الاهتمامات **بوظائف الاصطفاء** فتغني شعور الإنسان بما يخدم ميوله وأعماله كما تبعد وتطرد من الشعور ما لا يتعلق بهذه الأمور أو يعوق نشاطها وسيرها ويمكن تمثيل عمل الاهتمام (والانتباه) بعمل العدسات الضوئية في المصابيح الكهربية التي تجمع الصور في مكان محدد أو دائرة معينة وتلغيه فيما عداها، وهكذا تظهر بعض المستقبلات والمحفوظات (المودعة في الذاكرة) ظهوراً واضحاً في أوقات معينة بساحة الشعور وينأى بعضها الآخر في مقربة من الشعور وما يمكن أن يسمى تحت الشعور. كما يتوارى غيرها أو ينأى إلى ما يمكن تسميته باللاشعور (منطقة الأحلام بسائر أنواعها العادية والمتنوعة ومنطقة المخاوف والأطماع).

٥ ــ وفي حالات التنويم المغناطيسي (وهو نوع من النَّوم المصطنع) يزول الاصطفاء الشخصي ويتوارى وينعدم معه الانتباه ويتوارى الاهتمام، فتنطلق المحتويات النفسية (المستقبلات والمحفوظات) وتتحرر متدفقة طبقاً لنظامها المحدد

---

(١) كالأصوات الشديدة والحوادث المروعة والانفجارات.

المستقل ويقدر بعض العلماء أن الإنسان العادي يستخدم في حياته اليومية بين ٥ ــ ١٠ ٪ من طاقاته العقلية، ولكنه يصبح قادراً على استخدام ٩٠ ٪ من تلك الطاقات أثناء التنويم وفعاليات أخرى تكمن فيما وراء العقل.

٦ ــ وبطريقة ما تزال مجهولة تسيطر إرادة المنوِم على ورود المحتويات المذكورة وتدفقها، إن العلم الحديث يجهل هذه السيطرة ويعجز عن تعليلها حسياً، ويفسرها بعضهم بوصفها إحدى ظواهر انتقال الأفكار التلباتية (TELEPATHIE) (أو الإدراك الذي يتجاوز الإحساس).

وأياً كان الأمر، فإن الوقائع التي اطلعتُ عليها في مجال التنويم تؤكد امتياز الإنسان بوصفه مخلوقاً فريداً يملك الروح، والروح من أمر الله تعالى ومنحة سابقة من فضله قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1].

صدق الله العظيم.

(١) سورة السجدة: الآيات ٦ ــ ٩.

الفصل الثامن

من أجل تنمية طاقات الإنسان الروحية

مِنْ أَجْلِ تَنْمِيَةِ طَاقَاتِ الإِنْسَانِ الرُّوحِيَّة

الإنسان جسم ونفس، وللجسم مطالبه وحاجاته وشرائط نموه، وللنفس مطالبها وحاجاتها وشرائط نموها، وحياة الإنسان تتطلب ـ من أجل بقائها وارتقائها ـ التوازن. أعني توازن الجسم مع النفس وتوازن الفرد مع الجماعة، والملحوظ لدى معظم الآباء والأمهات أنهم يبالغون بتلبية مطالب الجسم ولو على حساب غيره... فهم يبذلون من أجل الأبدان الكثير من العناية ومعظم ما يملكون من مال. ويهملون نفسياتهم ونفسيات أطفالهم وطاقاتهم الروحية عن جهل أو تجاهل أو بساطة وسوء تقدير.

* * *

وفي الأزمنة الأخيرة يلاحظ العلماء والمعنيون بالشؤون الإنسانية تراجع العلاقات الروحية عند البشر وتراجع متطلباتها من الصحة النفسية والمعنوية، وتقلص الأمان النفسي وتفشي القلق والضيق والتبرم بالحياة والعيش بغير أمل... ويرون أن هناك عوامل كثيرة أدت إلى مثل هذا التراجع، أظهرها تسلط الهموم المادية متمثلاً في الأزمات الاقتصادية والمصائب والرزايا الناشئة من تدني قيم الحياة الإنسانية، ويكمن خلف هذا كله عاملان كبيران يسيطران على سير حياتنا المعاصرة ألا وهما:

* سرعة التغيرات..
* وسوء استخدام العلم ومنجزاته.

أما سرعة التغيرات فتظهر في نواحي شتى أهمها:

١ ـ تزايد السكان بشكل منفجر.

٢ ــ سوء توزيع الثروات رغم تزايدها.
٣ ــ سوء توزيع السكان في العالم.
٤ ــ تقارب المجتمعات ناتجاً عن تقدم وسائل الاتصال.
٥ ــ ارتقاء أدوات العمل وأساليبه.

وعلى العموم فإننا نرى أن ما يخلق المشكلات لمعنويات البشر الزيادة لا النقصان؛ إن البشرية لا تشكو من قلة أو فقرمادي، فهي في مجموعها في غنى وخصوبة، وإن الإمكانات والقدرات الموضوعة للاستخدام في أيدي البشر ليست ضئيلة ولا قليلة، ولكن العلل تنجم عن سوء التدبير وسوء التقدير. إن الأموال والأشياء المُتاحة في تزايد مستمر ملحوظ فالمعضلة ليست «ضآلة ما في الأيدي» من الأموال وإنما «كثرة ما في النفوس» من هلع (أي شح روحي وقلق وحسد) قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٠].

ولو تسنى للإنسان أن يعيد النظر في شؤونه على بصيرة، وتعلم كيف يفتح مغاليق نفسه ويحس بأن ما يتاح له وما يوضع في أيدي الناس قوامه نِعَمٌ فائقة من الله تستحق الشكر وثروات وطاقات جديرة بأن توضع لخدمة من يحتاج إليها من عباد الله، أعني لإشباع الجائعين وشفاء المرضى وتعليم الجاهلين، لو تعلم الإنسان كيف يفتح نوافذ روحه، ويستضيء بأضواء الحكمة لتبددت ظلمات القلق والحقد وجفت ينابيع البخل والخوف وشاعت في حياته مظاهر الرضى.

سوء استخدام العلم

فيتجلى في الرغبات القوية الرهيبة بتوجيه منجزات العلم صوب سيطرة الإنسان القوي على الضعفاء وبسط نفوذ الأغنياء على الفقراء.

إن الأرقام الخيالية من الأموال التي ترصدها الأمم القوية وتهيئها للصرف لا تنفق من أجل دعم صحة البشر وتقوية أواصر التفاهم، بل تنفق على الرفاه

والبذخ والتسلح ومضاعفة وسائل التدمير تدمير المجتمعات وتمزيق أوصالها، ولا يمكن اعتبار العلم أو تقدمه مسؤولاً (كما يظن البسطاء) فالعلم محايد دوماً وهو يقبل أن يستخدم في الاتجاهين (مع، أو ضد) الإنسان.

ولو أتيح للإنسان أن يعيد النظر في سوء استخدام العلم على هدى وبصيرة، وتعلم الأقوياء كيف يتصرفون بمنجزات العلم الموضوعة فلا يحبسونها على رفاههم الذاتي ومظاهر الغطرسة؛ إذا فعلوا ذلك سوف يتغير وجه العالم.

* * *

إن الحضارة المعاصرة بدلاً من أن ترتقي بالمعاني الروحية تجعل الجماهير من البشر تشعر أنها مسلوبة الإرادة مدفوعة صوب الهوان، والتوتر وضآلة القيمة.

وإذا تتبعنا الأسباب وتحرينا أصولها في نفسية الإنسان وجدنا أن المشكلة الرئيسية لا تنبع من فطرة الإنسان أو ما طبع عليه؛ فالفطْرة في الأصل سوية وسليمة، بل إن المشكلة تنبع ممّا يكسبه الإنسان ويتعلمه، إن البشر لا يتعلمون الشكر بل يتعلمون البغي، أقوياء البشر يتعلمون الفجور، ويقلدهم في هذا ضعفاء الناس ويستجيبون ناهجين على غرارهم.

* * *

وتهيمن على عقول المعلمين والمتعلمين أفكار ومبادىء من هذا النوع:

* «إن الحياة لا معنى لها في ذاتها. وإن الناس ذباب سريع التجمع والابتعاد». (ماركوس أوريليوس).
* إن البشر سحابة دخان. وإن الإنسان يقوم وحده فلا إله (أستغفر الله!).
* «إن الوجود صدفة. وليس للبشرية من مستقبل مشرق» (غابرييل مارسيل).
* «إن الحياة الإنسانية خالية من أي محتوى كريم؛ لأنها محاطة بالقلق والعدم». (هايديغر).
* «إن الحرية وهمٌ كامن في تصور الإنسان وعقله. وحين ينسلخ الإنسان عن

المجتمع ويكفر بالجماعة يفوز بحريته (سارتر) ». «الجحيم هم الآخرون» (سارتر).

فهذه أفكار أفرزتها العقلية الوجودية الكافرة وهي تنخر في عظام معظم الناس في الغرب وتُعِدهم للبغي والظلم والكفر بالنعم.

هناك أقوال كافرة أخرى مفادها:

* الأصل في الوجود هو المادة والمادة هي كل شيء.

* ليست غايتنا أن نفهم المجتمعات والإنسان وإنما أن نغير كل شيء: المجتمعات والإنسان (لينين).

* المهم أن يسيطر الغوغاء والرعاع فليتحدوا.

* ويجب القضاء على الدين فهو أفيون الشعوب. (ماركس).

وهكذا فإن أقوالاً كهذه هي بمثابة رد فعل على ضلالات المفكرين الأغنياء وهمها ينصب على نقل الثروة من مجتمعات إلى أخرى وليس حل المشكلات الناتجة عن الإثراء والغنى. وهكذا نجحت الشيوعية في إفقار الأغنياء ولم تنجح في إغناء الفقراء فآلت إلى المصير الذي وصلت إليه ونعلمه كلنا.

ونحن نقول:

لقد آن للبشر أن يعملوا لإعادة النظر في تقدير الأشياء وإدراك العالم بعيداً عن الأفكار المدمرة للروح الإنسانية، ومن المؤكد والثابت أن على الإنسان أن يتعلم «الشكر» كي يتحول كل شيء في حياته ويكتسب معاني جديدة. فحين يتعلم الإنسان أن يشكر الله الخالق يكتسب رؤية جديدة ويدرك نفسه والعالم من حوله إدراكاً مختلفاً:

* سيرى أن العالم مثابة ارتقاء الإنسان.

* وأن الحياة جديرة بأن تحيا، حين تنهض على أسس جديرة ثابتة لا زيغ فيها ولا ظلم ولا ظالم.

* وأن الإنسان (الذي خلقه إله جميل واحد، ونفخ فيه من روحه) جدير بأن يسعد ويهنأ.

* وهو يهنأ بالأشياء لأنها نعم من الله، لا مجرد أشياء مادية ويصبر على الحرمان من الأشياء بوصفه امتحاناً أو ابتلاءاً. والحرمان ليس إلا مرحلة[1].

* وإن على البشر الذين يملكون، أن يسهموا ويحملوا مسؤولياتهم، فهذا هو الوجه الحق للشكر.

* ولئلا يكون المال دولة بين الأغنياء.

* * *

وحين يتعلم الإنسان الشكر أي شكر الله والناس يرى أن الوجود والأشياء التي فيه أمور قيمة بشكل مطلق فهي ليست هبة المصادفة ولا مجموعة تقلبات مادية أو عفوية رعناء كونت نفسها بلا هدف بل هي مخلوقة مسخرة سخرها الخالق للبشر، خلقها وصورها بالحق وينبغي أن تستخدم بالحق ومن أجل أن تكون رحمة وفضلاً من الله لعباده عباد الحق.

* * *

وإذا كانت الأشياء من أبسطها كالذرة الصغيرة إلى أعظمها وأكبرها كالمجرة تتحرك طبقاً لقوانين دقيقة ومحكمة، فإنها تعبر بانتظامها وأحكامها عن إرادة الله الحق.

وأما البشر الذين تكتلوا وتراكموا في صور شعوب وقبائل، فإنهم قد كانوا كذلك، لا من أجل أن يختلفوا ويختلقوا الصراعات ويمارسوا الغطرسة والتعالي، بل من أجل أن يتعارفوا ويتآلفوا، فالخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله:

---

(١) ﴿فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا﴾. قال عليه الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة: لن يغلب عسرٌ يُسْرين.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإن الدرس العظيم الذي ينبغي على أجيال البشر أن يتعلموه، أن الإيمان بالله في شريعة الإسلام يقوم على أن:

إلهاً واحداً... خلق عالماً موحداً... وإنسانية واحدة.

فهذه حقائق هي في منتهى البساطة والوضوح، ولن تشهد أبسط منها وأصدق في وضوحها ولو بعد ملايين القرون. ويمكن لأي إنسان أن يتعرف بنفسه على الإله الواحد ليكسب نفسه، وبغير الإله يفقد الإنسان إنسانيته ويعيش على «الحيوان الذي في الإنسان»، قال تعالى:

﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

* * *

ولنعد إلى الآية الكريمة التي تصور «الحيوان الذي في الإنسان» والذي يحيا بعيداً عن الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

* * *

إن الإنسان الذي لا يتصل بالله حيوان ناطق ولكنه مخلوق فزع، خائف يستغرقه الهلع. وسرعان ما يتحور هلعه إلى جزع والجزع حالة من اليأس من أية رحمة كلما أصابه الشر، والإنسان إذا أصابه الخير فإن هلعه يجعله بخيلاً منتناً شحيحاً منغلقاً على نفسه على الرغم من الخير الذي أتاه ولا ينجو من ذلك إلا المصلون.

فمن هم المصلون؟؟... إنهم بشر ينشئون الصلات الدائمة مع خالقهم يذكرونه (وهم فرحون) ويشكرونه على نعمه (وهم مطمئنون) ويمارسون الإنفاق

---

(١) سورة المعارج: الآية ١٩ ــ ٢٢.

والعطاء، يسبحون الله ويمجدونه آملين أفضاله ورحمته:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾. [يونس]

* * *

إن حياة البشر على هذه الأرض تتقلب بين حالتين: حالة الإشباع، وحالة الإحباط.

* وتتميز حالة الإشباع بامتلاء نفسي وإقبال وزهو.

* وتتميز حالة الإحباط بانكماش نفسي وانقباض وخيبة.

في الإشباع يتنعَّم المرء ويعيش في بحبوحة ورخاء فإذا بعد عن الله غرق في بحور اللذات والمتع. وفي الإحباط يتوتر الإنسان ويعيش في فشل بئيس قاتم فإذا نأى عن الله تراكمت الهموم فوق رأسه وملأت قلبه وحياته، وهكذا يخرج الإنسان عن توازنه فيزيغ في الحالتين: حالة الإشباع، وحالة الإحباط، إذا كان كافراً بالله.

وإذن فهناك نوعان من الزيغ: (زيغ الفرح) و(زيغ اليأس).

إن الخيرات والملذات تخرج الإنسان من إنسانيته وروحانيته إذا طغت وتجعل الحيوان الذي فيه يقوى ويتعاظم فيصيبه الغرور ويدفعه الكبر بعيداً عن نفحة الروح التي كانت فيه، يوم تخلَّق أو تكون.

أما الشرور والآلام فإنها أيضاً تنتزع من الإنسان إنسانيته وروحانيته بشكل آخر قاتم حزين، فيستشري الحيوان الذي فيه فينفجر ويتلبسه اليأس ويدفعه الاستنكار والمقت بعيداً عن نعمة الله التي كانت فيه يوم تكون أو تخلق.

* * *

وبالصلاة يحيا المؤمن حياة الامتلاء بنعمة الله التي كانت فيه وما تزال: إن المؤمن الذي يصلي إلى الله ويتلو الكَلِمَ الطيب والآيات البيّنة، يدرك المعاني الرفيعة ويحيا المشاعر النقية، يدعو الله ويبتهل إليه في السر والخفاء، ويجأر إليه في الجهر مع المؤمنين، يتقلب بين خشية الله (فهو لا يخشى إلا الله) والتنعم بفضله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) يتلو المؤمن كلمة

الحمد فيستمتع بالشكر بين يدي «رب العالمين» ويتوثق أنه ربهم الذي يتعهدهم ويربيهم ويمنحهم (رغم كفرهم وضلالهم) من واسع فضله. فإذا قرأ «الرحمن» ذكر الرحمة الحانية والمودة بلا نهاية لجميع الكائنات، وإذا تلا «الرحيم» ذكر اللطف الإلهي الذي غمر وجوده الشخصي واختصه به. وحين يقرأ «مالك يوم الدين» يتوق إلى ثواب الله يوم الحساب ويشفق من خشيته في الوقت ذاته وإذا اتجه شعوره يرافق لسانه قائلاً: «إياك نعبد» يحس بالتذلل لله وحده و«إياك نستعين» يطلب عونه بصدق. وإذا انتهى من هذا كله طلب الهداية قائلاً: «اهدنا الصراط المستقيم» ملحاً على الهداية والاستقامة، راجياً أن يحشر في نهاية الأمر مع الذين أنعم الله عليهم وصفت أرواحهم وعاشوا ثم انتقلوا إلى حيث الفوز الكبير.

وبالعبادة يتفتح الشعور الكوني وينمو وعي الإنسان. في الزمان والمكان: **(الزمان)**: إن ملاحظة بزوغ الفجر في أيام السنة يوماً بعد يوم وتتبع إشراق الشمس وغروبها وتحركات الشفق بدءاً ونهايةً، كل هذا يمنح الإنسان خبرات دقيقة لحياة الإنسان في كل يوم وليلة فهذه مواقيت الصلاة للمؤمنين أما تحري الهلال فإنه يعين على بدء الصوم وانتهائه وبدء الحج وأيامه وهو إيذان بقدوم الأعياد.

(المكان): إن تحديد القبلة واتجاه الإنسان نحوها تمنح الناس خبرات تعين الأمكنة الروحية والأمصار التي يهفو إليها الإنسان في صلاته.

* * *

وهكذا يشعر المؤمن ويتوثق بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله قريبتان من قلبه دانيتان من نفسه، ليستا غريبتين، فهو ليس بعيداً عن الشمس بل هو مغمور بأضوائها، وأضواؤها لا تقتصر على تبديد الظلام بل هي مثابة لاستنارة النفوس والقلوب، فتتنقى وتصفو وتغدو جديرة بأن تمتلىء بمحبة الله ونيل رضوانه.

وبالعبادة تتفتح مشاعر الإنسان بوحدة الإنسانية. (أصلها وطبيعتها). إن الله تعالى رب العالمين جميعاً، فهو بنص الفاتحة يرحمهم ويشملهم بفضله ورعايته، إنه ليس رباً للمسلمين يخصهم وحدهم بالرحمة. ولا ينبغي للمسلم أن يقرأ سورة

الفاتحة فيقول الحمد لله رب (المسلمين) ففي هذا الكلام تحريف وانحراف لا يجوز قوله بل يفسد الصلاة ويحرم نطقه.

دروس الإيمان

يعلمنا الإيمان بالله تعالى أساليب التمتع بالحياة الطيبة[1]. وأهم هذه الأساليب ما يأتي:

١ ــ إذا حللنا «الشكر» الذي يدعو إليه الإسلام وجدناه سلوكاً رفيع المستوى نقياً يفضي إلى التنعم بالخيرات أكثر من مرة، إن الشاكر يتنعم بالشيء مرة بعد مرة، مرة بالنعمة ومرة بتذكر الله المنعم، ومرة بالناس الذين جرت على أيديهم الخيرات[2] في حين أن الكافر (والكفر ستر وتغطية) يتمرغ باللذات ولا يحس بمعانيها العظيمة ويفقدُ مع الأيام الرؤية السليمة.

٢ ــ يعلمنا «الشكر» أن الآلام والنقائص في الحياة من الأمور الهينة، وأن المؤمن الشاكر حريص على أن يبتهج بأمر الله كيفما كانت الأقدار، فهو يحيا في ظل الله ويعيش مع أناس طيبين في فطْرتهم، ومثل هذه الخبرات جديرة بأن تحمي الإنسان من عواصف الحياة وأنوائها.

٣ ــ إذا استقرأنا حياة الجاحدين الذين لا يعرفون الشكر ويسترون النعم بأغطية النكران السوداء، نجدهم غافلين عن قيم الأشياء إلا حين يحرمون منها (أي حين يتأذون ويتألمون) وكثير منهم لا يدرون أن لهم عيوناً إلا إذا أصيبت عيونهم بإصابة ما، ومنهم من لا يشعر بسلامة قواه إلا إذا أصيب بالشلل أو أحنى قامته ألم الظهر أو الكتف، ومنهم من لا يحس أن له قلباً ينبض إلا إذا مرض واضطرب قلبه بغضب أو اهتاج أو اضطر إلى صعود سريع على الدرج... إلخ.

---

(١) قيل: كان رسول الله ﷺ يدعو ربه حين يشرع بغسل وجهه في الوضوء يقول: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا...».

(٢) جاء في الأثر: من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

٤ ــ يجعل الإيمان صاحبه واثقاً بأنه حيث تكل قواه (من قيامه بواجباته، وبذل جهوده الصادقة)، فإنه مستعد دوماً لطلب المعونة من رب هو أقرب إليه من أي شيء في الحياة وأدنى وأرحم من أبويه وذويه وجميع أصدقائه، وأنه تعالى لا يضيّع أجره بل يخبىء له ويرجىء عظيم الجزاء على صبره، فلا شيء يمضي جزافاً في حياة الإنسان حين يكون مع الله.

ومثل هذا الإيمان الواثق بالله جدير بأن يشعرنا أن خبرات الألم التي تفجؤنا أو تلبث فينا بسبب المرض أو ضعف الشيخوخة أو العجز والارتباك وفقدان الأعزاء، ومعاناة الوحدة وتراجع العافية أو المال: هي أمور مهما زادت وطغت فإن المؤمن جدير بأن يغسل شعوره الذي ساء حاله في كل صلاة يصليها وكل عبادة يؤديها، وأن يستأنف من جديد لمتابعة السعي استجابة لنداء الله تعالى أن:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

و ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة].

٥ ــ ثم إن الإيمان يعلّم صاحبه ألا يخشى الفراغ النفسي ولا الخواء الروحي، ويمنعه من أن يهرب من الحياة أو يفر من المسؤولية. وما دام العالم ليس مصنوعاً بسبب مصادفة أو مجموعة مصادفات بل هو عالم مسخر بأمر الله من أجل الإنسان فإن الوجود ليس معادياً للبشر[1]، ولا هو غير آبه بهم بل هو وجود منظم دقيق وله أهدافٌ علوية يتوجه صوبها بشوق.

---

(١) يجنح الفكر الغربي إلى تصور العالم وكأنه يعادي الإنسان. والغربيون يحسون بأنهم إذ يكتشفون حقيقة من الحقائق أو قانوناً من القوانين، أنهم انتصروا على تلك الحقيقة أو ذلك القانون فقهروها كأن الحقائق حيوانات شرسة، وكأن القوانين قد وجدت كي تكون رهيبة وجائرة، إنهم لا يحسون بتعاطف مع الكون ولا تربطهم به صلة وثيقة من نفوسهم. في حين أن المسلم يتصور واثقاً أن خالق العالم والإنسان واحد هو الله، خلقهما وجعلهما متناسبين تناسب القفل والمفتاح، وهو الذي أوجد الوجود وجعله مسخراً للإنسان خليفته على الأرض. ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ سورة تبارك: الآية ١٥ صدق الله العظيم.

٦ – ثم إن الإيمان يعلمنا أن نسبغ على الآخرين المزايا الجميلة والخصال الأثيرة التي خلفها الإيمان فينا وظهرت في سلوكنا اليومي وآمالنا ويقيننا بالله، وأشرقت أفاقها في أعماق نفوسنا. فنحن آخر الأمر لسنا وحيدين ويد الله تظل مع الجماعة، ونحن منذ البداية كرام مكرمون، وأشياء العالم مسخرة ذلول، وإذا كانت تمازج هذه الأشياء بعض الصعوبات والتحديات، فهذا يجعلها أوفر قيمة ومجالاً كلما تهيأ لنا النجاح وتحقق لنا الظفر بها. ولنتصور شكل العالم وابتذاله إذا كان كل شيء فيه ميسراً ومبسطاً ولا يتطلب أي عناء ولا أي مشقة إنه سيكون عالماً باهتاً خالياً من المعنى والأهمية.

إن النجاحات التي نحرزها وحتى ضروب الفشل تجعلنا نذكر الله تعالى وأفضاله ونعمه التي لا تحصى، ونشهد آيات الله في الآفاق من حولنا، وفي الأعماق من نفوسنا:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

• • •

الإيدز جزاء وعقاب إلهي

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

تتكون كلمة الإيدز AIDS من الحروف الأولى للعبارة الإنكليزية Acquired immune Deficiency Syndrome.

وتترجم هذه العبارة بـ«متلازمة العوز المناعي المكتسب أو الأعراض المتزامنة لنقص المناعة المكتسب».

صاغ هذه العبارة مركز التحكُّم في الأمراض بأتلانتا، وقد استخدم كلمة (متلازمة Syndrome) بدلاً من (مرض Disease) لأن الإيدز ليس مرضاً واحداً وليست له أعراض واحدة ولا عدوىٰ واحدة، وإنما هو مجموعة أمراض متزامنة وأمراض عدة متلازمة مع سرطانات متنوعة أشدها سرطان كابوتسي وهو أخطر أنواع السرطانات.

اكتُشفت هذه المتلازمة سنة ١٩٨٠، وحُدد العامل المسبب لها سنة ١٩٨٤ وهذا العامل هو (الفيروس H.I.V.) وقد اشتق اسم هذا الفيروس من العبارة (Human immune Virus).

تأكد وجود هذا الفيروس عند:

١ ـ الشاذين جنسياً أو اللواطيين والزانين في (٩٠٪) تسعين بالمائة من الإصابات.

٢ ـ ويشاهد في دماء المصابين (بالناعور Homophilia) بسبب نقل الدم من مصابين بهذا الفيروس.

٣ ـ واكتشف في دماء المدمنين على المخدرات الذين يستخدمون إبرة زرق مشتركة بين المدمنين وتكون الإبرة ملوثة.

٤ - شوهد عند الأطفال المولودين من أمهات حاملات لهذا الفيروس.

وقد ثبت أن عدوى الإيدز لا تتم بطريق الهواء[١] أو الطعام وأدواته (كالملاعق وما إليها).

سبب الإيدز:

إن الفيروس (H.I.V.) الذي اكتشفه الطبيب (Montagnier مونتانييه) بمعهد باستور في باريز عام ١٩٨٣، هذا الفيروس يؤدي إلى الإيدز خلال فترة تتراوح بين ٣ سنوات و١٢ سنة بعد وصوله إلى الدم.

أعراض الإيدز:

هي كثيرة لا يحصيها عَد، وكلها تؤكد أن الإيدز قصاص أو عقاب إلهي وليس مرضاً واحداً، وأهم أعراضه:

التهاب الرئتين.

سرطان كابوزي.

الصداع المستمر.

الوهن غير المحدود في الجسم.

آلام غير محددة منتشرة في البدن.

تعرّق في الليل.

ضخامة العقد اللمفاوية.

انحرافات نفسية أهمها الاكتئاب وتشوّش الذاكرة والوعي.

وحين تأتي الوفاة لا يموت المريض من السرطان بل يموت في الغالب من التهاب الرئتين.

---

(١) من الثابت أن الفيروس (H.I.V.) ضعيف جداً خارج جسم الإنسان، ويموت في دقائق إذا تعرّض إلى الهواء رغم خطورته وقوته إذا هو دخل الجسم البشري.

الفيروس .H.I.V هو أصغر فيروس معروف:

معلوم أن هذا الفيروس يحتوي على ١٠ مورّثات جينات.

في حين أن الجرثوم يحتوي على ٥٠٠.

وأن ذبابة الفاكهة تحتوي على ٥,٠٠٠.

وأن الإنسان عنده ٥٠,٠٠٠.

فسبحان الذي جعل أضعف المخلوقات يقضي على سيد الكائنات الحية، حين يعصي ربه ويذكّرنا هذا بالنمرود أكبر طاغية كان على الأرض قضت عليه ـ حين تكبر وتجبر ـ بعوضة صغيرة حقيرة.

وقد أوضح الباحثون أن الفيروس (.H.I.V) حين يدخل إلى دم الإنسان يتعاظم وتكبر قدرته على التدمير ويتوجه صوب:

١ ـ الكريات البيضاء ليقضي عليها.

٢ ـ الجملة العصبية المركزية في فروعها.

٣ ـ أجهزة المناعة (المؤلفة من مراكز اللنف والعقد اللنفاوية).

وهو لا يسعى فقط لتدمير ما يقف في وجهه، وإنما يسعى ليحوّل عناصر المناعة فيجعلها فيروسية الطبيعة، وحين يفلح في هذا التحويل تصبح القوى المدافعة عن الصحة هي المهاجمة فتغدو الأمور كما يقول العامة: (حاميها حراميها)، وفي هذه الحالة أي إذا حصل ذلك فلن يُجدي أي دواء ولن يتمكن أعظم الأطباء من فعل شيء ما ولا أعظم الأدوية. والعياذ بالله.

والموت يأتي بعد فترة شيئاً فشيئاً.

لا يموت فيها المصاب ولا يحيا حتى تأتي منيته.

إثر فترة قد تصل إلى (١٥) خمسة عشر سنة من العذاب.

وفي محاولة السيطرة على الفيروس يقول الطبيب العالمي بلانشار:

نحن ما نزال في البداية

بداية القصة

والخفي المخفي أعظم

ونظراً لخطورة الموضوع وعالميته، فقد اتفقت شركات الأدوية على أن تتعاون فيما بينها وهي لا تعرف التعاون أبداً ولم يسبق لها أن تعاونت، وكل ذلك من أجل العثور على دواء معالج يهدد البشر بالانقراض إذا استشرى. والعياذ بالله.

ومعروف في عالم الطب أن العلماء يزرعون في أجسام حيوانات التجربة في المخابر (كالأرانب والفئران البيضاء وكلها ثديية مثل الإنسان) يزرعون فيروسات أو جراثيم في أجسامها فتتكون عندها المضادات، وعندما تتكون هذه المضادات يسحبون مصلها ويحولونه إلى لقاح لأجسام البشر.

حاول العلماء أن يصنعوا هذا في حيوانات التجربة ليحصلوا على لقاح الإيدز فلم يفلحوا في شيء أبداً، بل تأكدوا أن الفيروس (H.I.V.) لا يُعدي حيوانات التجربة، وهذا يعني أن تحضير لقاحات للإيدز مستحيل اعتماداً على حيوانات التجربة، كما يعني أن (الإيدز) مرض إنساني بالدرجة الأولى ويصيب الإنسان.

مقتطفات من مُذكرات مصابين بالإيدز:

- س.ت. من باريز ٢٧/ ١/ ١٩٩١: أنا أعلم أن نهايتي غامضة تقترب وأتمنى ألا تطول معاناتي الرهيبة، وما شبعتُ من الدنيا أو ليس الثمن فادحاً أقدّمه بسبب لذة دامت خلال دقائق؟.. آه لو يتّعظ الناس.
- ل.و. بومباي ١٣/ ٥/ ١٩٩٤: أنا متأكد وجميع الناس يعلمون أن في كل مجتمع أناساً لا عمل لهم إلا أن يكونوا رفاقاً في السوء[1]، إنهم بارعون في جمع الفتيان مع الفتيات وسحبهم إلى الأماكن الحمراء... وهناك وفي علب الليل هذه وتحت أضواء الشموع الخافتة تستيقظ المآثم السوداء تجلب الإيدز على أجنحة الموت، أما كان الأجدى أن تسمى علب الليل بعلب الموت؟؟..
- كاليفورنيا ط.س. ١١/ ٧/ ١٩٩٧: وقديماً كان في الناس شهوات وغواية، وكانت الغانيات في كل مكان بأمريكا وأوربا وما سمعنا بأحد أصيب بمثل هذا المرض اللعين، أنا أُدين التلفزيون والأفلام اللعينة، من الواجب أن

---

(١) يقول تعالى متحدثاً عن نظائر لهؤلاء: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة].

تُلغى هذه الأفلام المغرية وتُحرق ويمنع تحديثها. وقد كان أفضل وأجدى للناس أن تُصنع أفلام تظهر جمال ما خلق الله في ربوع الغابات وأعماق البحار وسفوح جبال الثلج وكل شيء جميل على الأرض... أليس هذا أحلى وأجمل وأروع وأبعد عن الأمراض.

- بانكوك ٢٤/٣/١٩٩٩: ليت القائمين على الإعلام يصورون بدلاً من مناظر الشهوات حلاوة الحياة الشريفة النقية في سماء النجوم وساعات الغروب ويذيعون في الناس جمال الحب في الأسرة، الحب العظيم الماثل في عيون الأطفال وبراءة العذارى بدلاً من الغواية، ويصورون جمال الإيمان بدلاً من أحابيل الشيطان، أنا أعلم أنني سأموت معذّباً والآلام تنهش جسمي وأنا ما أزال في مقتبل العمر وشرخ الشباب، وعندما أموت سأعلن أمام الله أن معظم رجال التربية والإعلام وجميع المصورين وكثيراً من الآباء والأمهات كانوا يقصّرون في التنبيه ولتجنب عالم الفتنة والإسراع في الزواج[1].

هل الإيدز مجرد تحدٍّ طبي أم أنه قصاص إلهي؟...

يميل الغربيون (في أوربا وأمريكا) إلى فهم الإيدز على أنه مرض مثل كل الأمراض يتحدّى الطب والعلم، ولهذا السبب فهم ليسوا مستعدين لتعديل سلوكهم الجنسي رغم ما يغري فيهم من أعداد يدفعهم إلى الفناء والموت الزؤام وكل ما يصنعونه أنهم يسعون لمتابعة دراستهم هذا المرض ومعرفة ما ينبغي أن يتناوله البشر من دواء أو أدوية للشفاء منه ودفع أذاه، وتراهم يَقبلون هذا التحدي كما لو أن فيضاناً أو طوفاناً طغى على سكان مدينة، فهم يسعون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وقد يعمدون إلى بناء السدود من أجل صد الفيضانات.

ورأينا:

١" ـ إن الأمور تختلف عن بعضها، فالفيضان حادث عارض خارج عن إرادة البشر وليس للإنسان يدٌ في إحداثه، كما أنه يدوم فترةً ثم يزول وينقضي

---

(١) ورد في الأثر: «إذا انتشرت الفاحشة في قوم ابتلاهم الله بأمراض وأوجاع ما كانت لدى مَن قبلهم».

بنفسه ثم تنتهي الأمور إذا انتهى وهو يختلف عن اجتياح الإيدز الذي ظهر بفعل البشر أنفسهم وتصرفاتهم، وهو لا ينتقل بالعدوى المعروفة (بطريق انتقال الجرثوم في الهواء أو من خلال الطعام)، وإذا حصل فإنه يتابع وجوده ولا يتوقف أو تظهر له بوادر الانحسار أو التراجع.

٢" ـ من المؤكد والواضح أن الإيدز ليس مرضاً واحداً وإنما هو متلازمة أمراض (أي تأتي بشكل متلازم) وعلى الطب أن يواجه مرضاً بعد آخر فيسعى للشفاء كما أن عليه أن يقيم فاصلاً بين أي مرض وآخر بعد أن يتم الشفاء.

٣" ـ ثبت أن فيروس (H.I.V.) المسبب للإيدز ليس ثابتاً على وجه مبين وإنما هو يغير من طبيعته من مجرد أن تمتد يدٌ لدراسته وتحليله أو عزله. (سبحان الله).

٤" ـ وقد ظهر إلى جانب الفيروس (H.I.V.) فيروسات أخرى تؤدي (بشكل ما يزال غامضاً للعلماء) إلى الإيدز، فهذه الفيروسات ذات شأن غامض وما يزال غامضاً ولم يتم الكشف عنه بعد، فالأمور في غاية التعقيد والدقة.

٥" ـ من بعض الأطباء المسلمين المتأثرين بالعقلية الغربية أن الإيدز مرض نازل من عند الله مثل نزول الأمراض، وقد عُرفت في الإسلام قاعدة «تداووا فإن الله ما أنزل من داء إلا وأنزل معه الدواء»، ونحن نرى أن في هذا الكلام مغالطة وذلك لأن انتشار المرض أو الداء العادي وعدواه يتم بغير إرادة الإنسان، فهو من الله وهذا شيء مسلَّم به، لكن الإيدز لا ينتشر ولا تنتقل عدواه كما تنتقل عدوى الجراثيم والفيروسات الأخرى، إنه يبدأ وينطلق من البشر أنفسهم وعدواه تتم بطريقة فريدة تختلف كلية عن العدوى المعروفة، إنه ينتشر بالصلات الجنسية المشبوهة في (٩٠٪) تسعين بالمائة من الحالات، وينتشر بانتقال الدم الملوث والمخدرات وقد ينتشر منتقلاً (من الأم المصابة) إلى مولودها لا بطريق الوراثة وإنما بطريق السوائل التي تكون في الولادة وتصاحب مجيء المولود.

خلاصة الأمر: أن الإيدز يصعد من شرور الإنسان ولا ينزل من السماء إلا لمن يستحقه أي بفعل الإنسان.

٦" ـ لم تتوفر حتى الآن رغم الجهود الطائلة والمحاولات المتنوعة

والأموال المرصودة له، لم تتوفر أية بادرة في الشفاء منه، ولم يُشف منه أحد أو وجد العافية.

٧" ـ أكدت الدراسات التي عقدت في أمريكا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها، أنه يتوجب على البشر أن يغيروا من سلوكهم الجنسي وأوصت المؤتمرات وحلقات البحث المعقودة عندهم «أن يتوجه الناس صوب العفة» التي عاش عليها البشر طيلة الدهور، ولم يعرفوا الإيدز ولا شبيهه، وأن يحافظوا على الزواج والامتناع عن أية صلة خارج الزواج والأسرة.

٨" ـ إذا عقدنا مقارنة بين الفيروس (H.I.V.) والفيروسات الأخرى وجدنا أن فيروس الأنفلونزا مثلاً، يدوم تأثيره خلال أسبوع ثم يتم الشفاء منه خلافاً لفيروس الإيدز الذي يدوم ما دامت الحياة منتهياً بالموت.

٩" ـ يُلاحظ أن فيروس الأنفلونزا يُعاقب من يستهتر بقضية البرد، أما فيروس الإيدز فهو يعاقب من يستهتر بقضايا كالنسل والإنسان والحياة وبقاء الإنسان وعلى رأس هذه القضايا العفة التي أمر الله بها ونهى عن خرقها والاستهتار بها.

١٠" ـ وبالطبع فإن الفيروسات لا تتصرف من نفسها أو (من عندياتها كما يقولون) وإذا فرضنا أنها تتصرف من نفسها فإن هذا يعني أن الفيروسات في منتهى الذكاء وتملك من أسباب الحكمة والبصيرة ما يجعلها تميّز بين قضية بسيطة كالبرد وقضايا هامة كالنسل، وما تظن كما لا يخطر ببال أحد أنه يقول أن الفيروس يصنع نفسه عفواً وتلقائياً ثم يصنع أذاه ووظيفته الرهيبة.

نتيجة: يقتضي المنطق السوي والعقل الراشد أن سلوك أنواع الفيروس لا يرجع إلى طبيعته أو ذكائه وإنما يرجع إلى إرادة علوية تعلو على الأمراض والجراثيم والبشر والوجود، وتجعل كل موجود «ميسراً لما خُلق له».

وهكذا يلجأ المؤمن بالله كي يجيره الله من الإصابة بأي علة، وهو يتخذ من جانبه الأسباب الموجبة للوقاية والدواء، أما غير المؤمن (أو لنقل الملحد) فماذا عساه أن يلجأ؟.. وإلى مَن سيلجأ.

هل سيقول: «أيها الفيروس العظيم أترضى أن نُصاب وأنت اللطيف الخبير عاملنا بلطفك وكن لنا معيناً وحافظاً أميناً؟!!..».

أو يتابع فيقول:

أنت أصغر من الجرثوم بآلاف المرات ولكن لماذا أنت أشد فتكاً منه، ما لك يا هذا؟.. يقول هذا ولا يتخذ السلوك الموجب للوقاية والدواء.

إن هذا هو موقف الطبيعيين الماديين الذي يماثل مواقف الوثنيين القدامى الذين حدثنا كتاب الله تعالى عنهم حين يأملون من الأصنام والأوهام أن تدفع عنهم غائلة السوء ولا تنفع ولا تضر نفسها ولا غيرها.

١١" ـ يتخذ علماء الطب في المعالجة بالمصل فيلجؤون إلى إصابة حيوانات التجربة كالفئران وما إليها وذلك بزرقها بالجراثيم المرادة، ثم يعمدون إلى استخلاص أمصالها التي تحتوي على المضادات، فهل أجرى الباحثون في مرض الإيدز شيئاً من ذلك؟.

بالطبع إنهم حاولوا ولكنْ..

ولكن الموسوعة البريطانية الصادرة في عام ١٩٩٩ تقول:

«إن البحث عن علاج للإيدز يواجه عقبة كبيرة هي عدم وجود أي حيوان يمكن أن يُصاب بفيروس نقص المناعة المكتسب، وبالتالي لن يتعرض لمرض الإيدز».

وهذا يعني أن الإيدز مرض إنساني ويصيب الإنسان وحده دون حيوانات التجربة، ولا مجال للتحدث عن مصل وقائي ضده حتى اليوم.

١٢" ـ لقد ثبت بالتجارب والبراهين التجريبية أن الإيدز بمثابة القصاص الإلهي يصيب البشر المنحرفين وحدهم، متوعداً إياهم كي يحيوا حياة نقية طاهرة جديرة بالإنسان، ذلك الإنسان الذي أكرمه الله تعالى ونفخ فيه من روحه.

وفي الكلام عن القصاص الإلهي يجب أن نتذكر أن عقاب الله لا يقتصر على تأديب المنحرفين وحدهم بل يهتم ويُعنى بسلامة الذين لم ينحرفوا وتمسكوا بأهداب الشرف والعفة والتقوى والحفاظ عليهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

* * *

[تم بعون الله]

فهرس المراجع

*** المراجع العربية:**

- القرآن الكريم.
- الموجز في سيكولوجية الأطفال، للمؤلف، ١٩٥١م.
- الموجز في علم النفس العام، للمؤلف، ١٩٥٦م.
- علم النفس بالمثل ومن الحياة، للمؤلف، ١٩٥٧م.
- أسس الصحة النفسية، د.عبد العزيز القوصي، ١٩٧٠م.
- علم النفس التربوي، آرثر جيتس ورفاقه، تعريف د.ع. القوصي، ١٩٦٠م.
- الإسلام وأزمة الغرب، المفكر الإسلامي جارودي، ١٩٨٣م ـ دراسات في السياسة والتاريخ والاقتصاد.
- سيكولوجية الأمومة ومسؤولية الحمل، المؤلف، ١٩٨٥م.
- من أجل أطفالنا، المؤلف، ١٩٨٢م.
- سيكولوجية الطفل المعاق، المؤلف، ١٩٨٢م.
- سيكولوجية أسير حرب، تعريب المؤلف، ١٩٨٣م.
- الأطفال مرآة المجتمع، د. محمد عماد الدين إسماعيل، ١٩٨٦م.
- مجلة علم النفس التكاملي، القاهرة، د. يوسف عواد، ١٩٤٦ ـ ١٩٥٨م.
- مبادئ علم النفس العام، د. يوسف مراد، ١٩٤٦م.
- أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، ١٩٨٠م.
- فن التعليم، جيلبرت هايت، تعريب فريد أبو حديد، ١٩٥٠م.
- في التربية، برتراند راسل، تعريب الغمراوي، ١٩٤٣م.
- نظريات الإلزام الأخلاقي، المؤلف، ١٩٦٥م.
- الأسرة المتصدعة ودورها في جنوح الأحداث، المؤلف، ١٩٦٣م.
- دراسة المجتمع العربي، المؤلف، ١٩٦٦م.
- العسل، للدكتور محمد نزار الدقر.
- الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ١٩٦٠م.

- الإسلام وحقوق الإنسان، د. محمد عمارة، ١٩٨٠م.
- المدخل إلى علم النفس الإسلامي، المؤلف، ١٩٩٠م.
- المثل الأعلى في الأنبياء، خوجة كمال الدين، ترجمة أحمد الشريف.
- رسائل إخوان الصفاء.
- مقدمة ابن خلدون.
- تحفة المودود في أحكام المولود، ابن قيم الجوزية الدمشقي.
- النوم والأرق، أحمد فؤاد الأهواني.
- الشعور، وما خلف الشعور في المنظور الإسلامي وعلم النفس الحديث، للمؤلف.
- كتاب السلطان، برتراند رسل، ترجمة خيري حماد.
- المنقذ من الضلال، الإمام الغزالي.
- مجلة رسالة الجهاد.
- من أسرار الحياة والكون، د. عبد المحسن صالح.
- القاموس المحيط، الفيروزابادي.
- عيون الأنباء في طبقة الأطباء، ابن أبي أصيبعة.
- الإيدز يهدد العالم، للمؤلف.

*** المراجع الأجنبية:**

- THOMAS VERNY. JOHN KELLY.
- SOL GORDON PSYCHOLOGY FOR YOU 1981.
- HAYES BIRNBAUM: PRESCHOOLERS RETENTION OF TELEVISED INFANT.
- WATSON. J. B. PSYCHOLOGICAL CARE OF INFANT AND CHILD 1928.
- WATSON. D. S. SWILLING COOING AND THE GAME.
- YARRAW. L. J. SEPARATION FROM PARENTS IN EARLY CHILDHOOD.
- STANLEY. LIFE DOES HAVE A PURPOSE.
- RIPPLE-JAQUISH HUMAN DEVELOPMENT.
- PARIS MATCH REV. DOCUMENTAIRE 1982 FEV.
- MARSHAL KLAWS, PARENT INFANT. BONDING.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة بقلم الأستاذ زهير الصابوني رحمه الله	٧
مقدمة بقلم الدكتور وهبة الزحيلي	١١
مقدمة الباحث المؤلف	١٥
الباب الأول: (من آيات الله في الآفاق)	
الفصل الأول: (من آيات الله على الأرض)	٣١
الفصل الثاني: (الشمس مفاعل نووي هائل)	٤٥
الفصل الثالث: (تلوث البيئة في الأرض)	٥٥
الباب الثاني: (من آيات الله في الأنفس)	
الفصل الرابع: (نفسية الجنين في بطن أمه)	٧٥
الفصل الخامس: (النوم)	٨٧
الفصل السادس: (الأحلام)	١٠١
الفصل السابع: (التنويم المغناطيسي)	١١٣
الفصل الثامن: (من أجل تنمية العلاقات الروحية)	١٢٩
(الإيدز جزاء وعقاب إلهي)	١٤٢
فهرس المراجع	١٥٠
فهرس الموضوعات	١٥٢